الفصل الخامس

وفيه مباحث

نظرات فى تفسير سورتى الْمُعَوِّذَتَيْنِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (١) .

فى تفسير المعوذتين (*) :

- المؤمنون أملهم حفظ الله ورعايته لهم .
- وفى لمحات خاطفة من نظرات ابن القيم فى المعوذتين نجد :

- أنه بما يذكره فى إيجاز .. ينزل الطمأنينة على القلوب .
- ويربط الخلق بخالقهم سبحانه وهديه وتعاليمه .
- ويجول فى أقوال السلف والخلف منتقيًا الأصح والصحيح .
- معللاً لما يرجحه ، ويذكر ما يجول بخاطره بما يرضى أشواق الروح .

(*) الإنسان قوى الإرادة والإيمان والعزيمة لا يكون فريسة الخرافة والوهم والخوف ، يعتمد على ربه ويؤمن به حق الإيمان ، فيتخطى كل العقبات سليمًا بإذن الله تعالى والإنسان الضعيف لا يقوى على الوقوف بقدميه دون تعثر ، يخاف من خياله ، ويعيش أسير الوهم والخيال .. ما إن يقف على قدميه حتى يكبو ومن أجل هذا الإنسان الضعيف اخترت له هذا الفصل ليقف على قدميه .. ويزداد الإنسان القوى الإرادة قوة بإيمانه .

(١) استعاذة « الفلق » من حيوان وأناسىّ .

- وفى الألفاظ يذكر اشتقاقها واستعمالاتها فى ألفاظها .
- ويطمئن الإنسان إلى أن كل شىء بقضاء .
- ويشير دائمًا إلى أن الاستقامة طريق النجاة .
- وأن الله سبحانه ما ترك فى كتابه العزيز من شىء : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ﴾ .
- ويرد توهم النّاس عامتهم وخاصتهم إلى خصائص الإسلام وأثره ، وهديه .
- ويستشهد بالأحاديث الصحيحة على ما ذكره القرآن الكريم .
- ويضع فى يد المسلمين مفتاح الأمن والأمان .

وطريقة ابن القيم فى هذا الفصل تحليل هذه الألفاظ

obeikan.com

يفسر الألفاظ بما اشتهرت به اللفظة ، ويختار ما يرجحه :

(الفلق) فلق بمعنى مفلوق ، وكل ما فلقه الرب فهو فلق ، وانفلق عن شيء كالحب والنوى والأرض بالنبات .

وهل هو اسم واد أو شجرة فى جهنم ؟ أو اسم من أسمائها ؟ وهو النور الذى يظهر فى النهار ؟ وإذا كان الأخير . . فنحن نستعيذ به من شر غاسق إذا وقب . فما الغاسق ؟

وهل الغاسق الليل ؟ أو دخول ظلمة الليل ؟ أو هو البرد من قوله تعالى : ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ أو هو الزمهرير الذى يقتل ببرده ؟ ويرجح أنه الظلمة ليلاً ، إذا وقب ، أى دخل فى شيء - ويناسب القمر إذا دخل فى الظلمة [1] ، ويؤيده الحديث الشريف عن عائشة - رضى الله عنها - حين أخذها النبى ﷺ ، ونظر إلى القمر ، وقال لها : « يا عائشة - استعيذى بالله من شر هذا ، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب » ، رواه الترمذى . فالليل غاسق ، والقمر غاسق . . إلخ ما ذكره .

وسبب الاستعاذة من ذلك : أن الليل محل سلطان الأرواح الشريرة والخبيثة ، وفيه تنتشر الشياطين وذكر الحديث الذى أخرجه أحمد غروب الشمس : « . . . إذا غربت الشمس انتشرت الشياطين . . » ولذا قال : « فأكفتوا صبيانكم ، واحبسوا مواشيكم ، حتى تذهب فحمة العشاء » ، وفى حديث آخر : « فإن الله يبث من خلقه ما يشاء » . . ولذا فالإيمان نور ، والكفر ظلمات ، ومآل النور نور ومستقره فى القلب المستنير ، والعكس .

* *

---

(١) تكثر فى الليل الحوادث السيئة ، وتدب الهوام والسباع واللصوص والحشرات والزواحف ، ويكثر ذلك إذا اشتدت ظلمة الليل (إذا وقب) ، والغاسق وصف الليل إذا اشتدت ظلمته ، فهو صفة لموصوف محذوف لظهوره من معنى وصفة وتنكيره للجنس، أى : جنس الليل .

* **والنفاثات فى العقد** : هن السواحر ، اللاتى يعقدن الخيوط وتنفثن فى العقد وتعين عليه الأرواح الشريرة المحبة للأذى . . وذكر النساء لأن السحر غالب فيهن . وقيل : لأن بنات لبيد بن الأعصم سحرن النبى ﷺ . . والصحيح أن الذى سحر هو لبيد نفسه ، وهل سحر النبى ؟ أم لا ؟ يرجح ابن القيم أنه سحره فيما لا يمس الرسالة وإبلاغها . . وإنما أثر السحر فيما هو من شئون الدنيا . . كالنسيان والتوهم . . . إلخ . وحين عوفى النبى من سحره . . شكر ربه وسكت ، ولم يقتص من الساحر . . حتى لا يغضب له قومه فتكون فتنة (١) .

وأنعم الله عليه وعلى المسلمين بسورتى : الفلق والناس . . رقية وحفظ وشفاء بإذن الله تعالى . . وإذا نزل بالمسلمين بلاء كانوا قدوة للدعاة من بعدهم . . وعليهم الالتجاء إلى الله تعالى وطلب الشفاء منه - والصبر على الأذى . . وفيه رفعه درجاتهم . ولم يلتفت ابن القيم إلى كلام المعتزلة وغيرهم فى إنكار السحر .

* *

والشر الرابع والأخير فى سورة الفلق ، هو : **شر الحاسد إذا حسد** .. فالشر يتحقق عند حدوث الحسد من الحاسد . . وعلم جبريل عليه السلام نبينا الرقية حين رقاه بقوله : « بسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك » .

وخير رقية فى قراءة المعوذتين أيضًا كما جاء فى الأحاديث ، والأحاديث الأخرى فى رقى النبى ﷺ ، وهى : « كان رسول الله ﷺ إذا سَافَرَ فأقبل

---

(١) وبعض المفسرين يقولون : إن الرسول مأمون من السحر والسحرة إبطالاً لقولهم: « إن تتبعون إلا رجلاً مسحورًا » ، كما ذهب الإمام محمد الطاهر بن عاشور فى تفسيره ، وغيره ، وإنما أمر الله رسوله بالاستعاذة من شرهم ؛ لأنه ضمن له ألا يلحقه شر السحرة ، ولأن الله أعاذه منها .

الليلُ قال : « يَا أرضُ ربِّى وربُّك اللهُ ، أعوذ باللهِ من شَرِّكِ ، وشَرِّ ما فيكِ ، وشَرِّ مَا خُلِقَ فيكِ ، وشرّ ما يَدِبُّ عليك ، أعوذ باللهِ من أسدٍ وأسود ، ومن الحية والعقرب ، ومن ساكن البلد ، ومن والد ما ولد » .

وفى الحديث الآخر :

« أعوذ بكلمات الله التامة التى لا يجاوزها بَرٌّ ولا فاجرٌ مِنْ شَرِّ ما خلقَ وذرأ وبرأ ، ومن شَرِّ ما نزل من السماء وما يعرج فيها ، ومن شر ما ذَرأ فى الأرض وما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن » (*) .

* * *

(*) ملاحظة : من ود مزيدًا مما نحن بصدد الاستشهاد له فليرجع إلى « تفسير المعوذتين » للإمام ابن تيمية وابن القيم - وقد طبعا فى كتاب واحد ، وشكر الله لمن حققهما - ومن نشرهما رجاء النفع والخير ، ففيهما علم غزير ، ورأى مستنير .

obeikan.com

المبحث الأول

أحاديث ومأثورات فى الاستعاذة :

روى مسلم فى « صحيحه »[1] من حديث قيس ابن أبى حازم عن عقبة ابن عامر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَم تَرَ آيات أُنزلت الليلة لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ : ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

وفى لفظ آخر - أخرجه الطبرانى فى الكبير - من رواية محمد بن إبراهيم التيمى عن عقبة أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا أُخبِرُكَ بِأَفضَلِ مَا تعوَّذَ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ ؟ » قلت : بلى ، قال : « قُل : أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق » ، و« قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس » .

وفى الترمذى حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لهيعة ، عن يزيد بن حبيب ، عن على بن رباح ، عن عقبة بن عامر ، قال :

« أمرنى رسول الله ﷺ أن أقرأ بالْمُعَوِّذَتَيْنِ فِى دُبُرِ كُلِّ صَلاة » . . قال : هذا حديث غريب .

وفى الترمذى والنسائى وسنن أبى داود عن عبد الله بن خبيب قال :

« خرجنا فى ليلة مطر وظُلمَة نطلبُ النَّبِىَّ ﷺ لِيُصَلِّى لنا ، فأدركناه ، فقال : « قُل » . فلم أقل شيئًا ، ثم قال : « قُلْ » ، فلم أقل شيئًا ، ثم قال : « قُل » ، قلت : يا رسول الله ؛ ما أقول ؟ قال : « قُل : قُل هو الله أحدٌ ، والمعوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمسى ، وحِين تُصبِح ثلاثَ مراتٍ ، تكفيك مِنْ كُلِّ شىء » ، قال الترمذى حديث حسن صحيح .

وفى الترمذى أيضًا من حديث الجريرى ، عن أبى نضرة ، عن سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يتعوَّذُ من الجانّ وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان ، فلما نزلتا أخذَهما ، وتركَ ما سواهما » .

قال : وفى الباب عن أنس وهذا حديث غريب .

---

(١) رواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وأحمد ، والبيهقى .

وفى الصحيحين عن عائشة :

« أن النبىَّ ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه نفثَ فى كَفَّيه بقُل هو الله أحدٌ والمعوذتين جميعًا ، ثم يمسح بهما وجهَه ، وما بلغَتْ يَدَاه من جسده . قالت عائشة فلما اشتكى كان يأمرنى أن أفعل ذلك به »

قلت : هكذا رواه يونس عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ، ذكره البخارى .

ورواه مالك ، عن الزهرى ، عن عروة عنها :

« أن النبى ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفثُ فلما اشتدَّ وجعُه كنتُ اقرأ عليه ، وأمسحُ عليه بيدِه رجاء بركتها » .

وكذلك قال معمر عن الزهرى عن عروة عنها :

« أن النبى ﷺ كان ينفث على نفسه فى مرضه الذى قُبِضَ فيه بالمُعَوِّذَات ؛ فلما ثَقُلَ كنتُ أنَا أنفثُ عليه بهنّ ، وامسحُ بيده نَفْسَه لبركتها ، فسألتُ ابن شهاب كيف كان يَنْفُثُ قال : ينفثُ على يَدَيْه ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِما وَجْهَهُ » .

ذكره البخارى أيضًا ، وهذا هو الصواب : أن عائشة كانت تفعل ذلك والنبى ﷺ لم يأمرها ولم يمنعها من ذلك ، وأما أن يكون استرقى وطلب منها أن ترقيه فلا . (فهو الراقى لنفسه) ﷺ .

والمقصود الكلام على هاتين السورتين وبيان عظيم منفعتهما وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما ، وأنه لا يستغنى عنهما أحدٌ قطُّ ، وأنّ لهما أثرًا خاصًا فى دفع السحر والعين وسائر الشرور ، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظمُ من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس ، وقد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول - وهى أصول الاستعاذة :

أحدها : نفس الاستعاذة .

والثانية : المستعاذ به .

والثالثة : المستعاذ منه : فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين ، فلنعقد لهما ثلاثة فصول : الفصل الأول : الاستعاذة ، والثانى : فى المستعاذ به ، والثالث : فى المستعاذ منه .

* * *

المبحث الثانى

لفظ عاذ وما تصرف منه :

اعلم أن لفظ « عَاذَ » وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة ، وحقيقة معناها : الهروبُ من شىء تخافُه إلى مَن يَعصمُك منه ؛ ولهذا يسمّى المستعاذ به معاذًا كما يُسمّى مَلجأ ووَزَرًا . .

فمعنى « أعوذُ » : التجئ وأعتصم وأتحرَّز . وفى أصله قولان :

أحدهما : أنه مأخوذ من الستر .

والثانى : أنه مأخوذ من لزوم المجاورة .

فأمّا من قال إنّه من الستر قال : العرب تقول للبيت الذى فى أصل الشجرة التى قد استتر بها : « عُوَّذ » بضم العين وتشديد الواو وفتحها . فكأنه لما عاذَ بالشجرة واستتر بأصلها وظلّها سمَّوه عُوَّذًا ، فكذلك العائذ قد استتر من عُدوّه بمن استعاذ به منه ، واستجنَّ به منه .

* ومن قال هو لزوم المجاورة قال : العرب تقول لِلحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه : « عُوَّذ » لأنه اعتصم به واستمسك به فكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به واعتصم به ولزمه ، **والقولان حق** والاستعاذة تنتظمهما معًا :

فإن المستعيذ مستترٌ بمُعاذه متمسّك به ، معتصم به قد استمسك قلبه به ولزمه ، كما يُلزم الولدُ أباه إذا أشهر عليه عدُوُّه سيفًا وقصده به ، فهرب منه فعرض له أبوه فى طريق هربه ، فإنَّه يُلقى نفسه عليه ويستمسك به أعظَم استمساك ، فكذلك العائذ قد هرب من عدُوّه الذى يَبغى هلاكَه إلى ربه ومالكه وفَرَّ إليه ، وألقَى نفسه بين يديه ، واعتصم به ، واستجارَ به ، والتجأ إليه .

وبعد : فمعنى الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات ، وإنما هى تمثيلٌ

وإشارةٌ وتَفهيمٌ . وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدى الربّ ، والافتقار إليه ، والتذلل بين يديه أمرٌ لا تحيط به العبارة .

ونظيرُ هذا التعبيرُ عن معنى محبّته وخشيته وإجلاله ومهابته ، فإنَّ العبارةَ تقصُر عن وصف ذلك ، ولا تُدرك إلا بالاتصاف بذلك لا بمجرد الصفة والخبر .

* *

وأصل هذا الفعل « أَعْوُذُ » بتسكين العين وضم الواو ، ثم أُعِلّ بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو فقالوا : « أَعُوْذُ » على أصل هذا الباب . ثم طردوا إعلاله فقالوا فى اسم الفاعل : « عائذ » وأصله « عَاوذ » فوقعت الواو بعد ألف فاعل فقلبوها همزة كما قالوا : « قائم » و« خائف » ، وقالوا فى المصدر : « عياذًا بالله » وأصله « عِوَاذًا » كلواذ فقلبوا الواو ياء لكسرة ما قبلها ولم تحصنها حركتها لأنها قد ضعفت بإعلالها فى الفعل وقالوا : « مُسْتَعِيذ » وأصله : « مُسْتَعْوِذ » كمستخرج ، فنقلوا كسرة الواو إلى العين قبلها قلبت الواو قبلها كسرة فقلبت ياء على أصل الباب .

* *

(فإن قلت) : فلم دخلت السين والتاء فى الأمر من هذا الفعل كقوله: « فَاسْتَعِذْ بالله » ولم تدخل فى الماضى والمضارع بل الأكثر أن يقال : « أعوذ بالله » و« عُذتَ بالله » دون « استعيذ » و« استعذت » ؟

قلت : السين والتاء دالّةٌ على الطلب فقوله : « استَعِذْ بالله » ، أى : اطلب العياذ به كما إذا قلت : استخر الله أى اطلب خيرته واستغفره أى اطلب مغفرته واستقله أى اطلب إقالته ؛ فدخلت فى الفعل إيذانًا لطلب هذا المعنى من المعاذ ، فإذا قال المأمور أعوذ بالله فقد امتثل ما طلب منه ؛ لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام ، وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام ، وبين

طلب ذلك ، فلما كان المستعيذ هاربًا ملتجئًا معتصمًا بالله أتى بالفعل الدال على ذلك دون الفعل الدال على طلب ذلك ، فتأمّله .

وهذا بخلاف ما إذا قيل : استغفرِ اللهَ ، فقال : استغفرُ الله ، فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله ، فإذا قال : استغفر الله كان ممتثلاً لأن المعنى : أطلُبُ من الله أن يغفر لى ، وحيث أراد هذا المعنى فى الاستعاذة فلا ضير أن يأتى بالسين فيقول : أستعيذ بالله ، أى : أطلب منه أن يعيذنى ، ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه .

فالأول : مخبر عن حاله وعياذه بربه ، وخبره يتضمن سؤاله ، وطلبه أن يعيذه .

والثانى : طالب سائل من ربه أن يعيذه كأنه يقول : أطلب منك أن تعيذنى فحال الأول أكمل ، ولهذا جاء عن النبى ﷺ فى امتثال هذا الأمر ، فيما رواه البخارى .

« أعوذُ باللهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » ، « وأعوذ بكلمات الله التامات » ، و« أعوذ بعزة الله وقدرته » دون أستعيذ بل الذى علمه الله إياه أن يقول :

﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ دون أستعيذ فتأمل هذه الحكمة البديعة .

* *

(فإن قلت) : فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به ؟ فقال:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

ومعلوم أنه إذا قيل : قل الحمد لله ، وقل : سبحان الله ، فإن امتثاله أن يقول : الحمد لله وسبحان الله ، ولا يقول قل سبحان الله .

(قلت) : هذا هو السؤال الذى أورده أُبى بن كعب على النبى ﷺ بعينه ، وأجابه عنه رسول الله ﷺ ، فقال البخارى فى صحيحه :

حدثنا قتيبة ، حدثنا سفيان ، عن عاصم وعبدة ، عن زِرّ قال : « سألت أبيّ بنَ كعبٍ عن المعوّذَتَيْن ، فقال : سألت رسولَ الله ﷺ فقال : « قيلَ لى : فقلت » . فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ » (١) .

ثم قال حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبدة بن أبى لبابة ، عن زِرّ بن حبيش ؛ وحدثنا عاصم عن زر قال :

« سألت أبيّ بن كعب قلت : أبا المنذر إنَّ أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا ، فقال : إنى سألت رسول الله ﷺ فقال : « قيل لى . فقلت : قل » ، فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ » .

(قلت) : مفعول القول محذوف وتقديره قيل لى : قل ، أو قيل لى هذا اللفظ فقلت كما قيل لى . ونحت هذا من السر : أن النبى ﷺ ليس له فى القرآن إلا بلاغه (٢) ، لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه ، بل هو المبلّغ له عن الله . وقد قال الله له : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ فكان يقتضى البلاغ التام أن يقول : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، كما قال الله .

وهذا هو المعنى الذى أشار النبى ﷺ إليه بقوله : « قيل لى فقلت » أى أنى لست مبتدئًا ، بل أنا مُبلّغ أقول كما يقال لى ، وأُبَلّغ كلام ربى كما أنزله إلىّ . فصلوات الله وسلامه عليه لقد بَلَّغَ الرسالةَ ، وأدَّى الأمانةَ ، وقال كما قيل له ، فكفانا وشفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ، ممن يقول هذا القرآن العربىّ ، وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به ، ففى هذا الحديث أبينُ الرَّدّ لهذا القول ، وأنه ﷺ بَلَّغ القول الذى أمر بتبليغه على وجهه ولفظه ، حتى أنه لما قيل له : « قُل » ، قال هو : « قُل » ؛ لأنه مُبلّغ محضٌ وما على الرسول إلا البلاغ .

* * *

(١) وكل كلمة (قل) فى القرآن تدل على أن القرآن ليس من كلام النبى ، وإنما هو مبلغ عن ربه ؛ لأن الإنسان لا يأمر نفسه ، وإنما يأمر غيره .

(٢) كما ذكرنا من قبل .

المبحث الثالث

المستعاذ به

المستعاذ به ، وهو الله وحده رَبُّ الفلق ، ورَبُّ النَّاس، ملك الناس، إله الناس [1] الذى لا ينبغى الاستعاذةُ إلا به ، ولا يُستعاذ بأحد من خلقه ، بل هو الذى يُعيذُ المستعيذين ، ويعصمُهم ، ويمنعهم من شرّ ما استعاذوا من شره . وقد أخبر تعالى فى كتابه عمن استعاذ بخلقه : أن استعاذته زادته طغيانًا ورهقًا ، فقال حكاية عن مؤمنى الجن :

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [2]

جاء فى تفسير الطبرى : أنه كان الرجل من العرب فى الجاهلية إذا سافر فأمسى فى أرض قفر قال :

« أعوذُ بسيد هذا الوادى من شرّ سفهاء قومه » .

فيبيت فى أمن وجوار منهم حتى يصبح ، أى فزاد الأنسُ الجنَّ باستعاذتهم بسادتهم رهقًا أى طغيانًا وإثمًا وشرًا ، يقولون : سُدْنا الإنسَ والجنَّ .

و« الرهق » فى كلام العرب : الإثم وغشيان المحارم ؛ فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانًا لما كان محظورًا من الكبر والتعاظم ، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن .

واحتج أهل السُّنَّة على المعتزلة فى أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبى صلى الله عليه وسلم استعاذ بقوله : « أعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّات » . وهو صلى الله عليه وسلم لا يستعيذ بمخلوق أبدًا . ونظير ذلك قوله فيما رواه مسلم والترمذى والنسائى :

---

(١) فى هذه السورة عطف شر الحاسد على شر الساحر ، المعطوف على شر الليل .

(٢) الجن : ٦

« أعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك »

فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته ، وأنه غير مخلوق ، وكذلك قوله « أعوذ بعزة الله وقدرته » ، وقوله كما جاء فى كتب السيرة : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات » (١)

وما استعاذ به النبى ﷺ غير مخلوق ، فإنه لا يستعيذ إلا بالله أو صفة من صفاته .

* *

وجاءت الاستعاذة فى هاتين السورتين باسم « الربّ » ، و« المليك » ، و« الإله » .

وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى « الفلق » وإلى « الناس » . ولا بُدّ من أن يكون ما وصف به نفسه فى هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة ، ويقتضى دفع الشَّرّ المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها ، وقد قررنا فى مواضع متعددة : أن الله سبحانه يُدْعَى بأسمائه الحُسْنى (٢) فَيُسْئل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه .

وقد قال النبى ﷺ فى هاتين السورتين أنه : ما تعوّذ المتعوّذون بمثلهما ، فلا بد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضيًا للمطلوب ، وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه ، وإنما يتقرر هذا بالكلام فى الشىء المستعاذ منه فتتبين المناسبة المذكورة فنقول :

* * *

---

(١) من دعاء النبى ﷺ حين رجع من الطائف حزينًا مما لاقى هناك ، ونصّه : « اللّهمّ إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى ، وهَوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى مَن تَكلُنى ؟ إلى بعيد يتجهّمنى ؟ أم إلى عدوّ ملكتَه أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضبٌ فلاَ أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة من أن تُنزل بى غضبك ، أو يحلّ علىّ سخطك لك العُتبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك » .

(٢) لقوله تعالى ﴿ ولله الأسماءُ الْحُسْنى فادعُوهُ بها ﴾ (الأعراف ١٨٠)

المبحث الرابع

الأشياء المستعاذ منها :

الشرُّ الذى يصيب العبد لا يخلو من قسمين :

(أ) إما ذنوبٌ وقعت منه يُعَاقَب عليها ، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه ، ويكون هذا الشر هو الذنوب ومُوجباتها ، وهو أعظم الشَّرَّين ، وأدومهما وأشدُّهما اتصالاً بصاحبه .

(ب) وإما شرٌّ واقع به من غيره ، وذلك الغير إما مُكلَّف أو غير مكلف .

والمكلف : إما نظيره وهو الإنسان أو ليس نظيره وهو الجنى .

وغير المكلف مثل : الهوام وذوات الحُمَى [1] وغيرها فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه وأدلّه على المراد وأعمه استعاذة ، بحيث لم يبق شرٌّ من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما . فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة :

أحدها : شَرُّ المخلوقات التى لها شر عمومًا .

الثانى : شرُّ الغاسق إذا وقب .

الثالث : شرُّ النفاثات فى العقد .

الرابع : شر الحاسد إذا حسد .

فنتكلم على هذه الشرور الأربعة ومواقعها ، واتصالها بالعبد ، والتحرز منها ، قبل وقوعها ، وبماذا تدفع بعد وقوعها ، وقبل الكلام فى ذلك لا بد من بيان الشر ما هو وما حقيقته ؟ فنقول :

الشر يقال على شيئين : على الألم ، وعلى ما يُفضى إليه وليس له مُسمّى سوى ذلك ، فالشرور : هى الآلام وأسبابها=فالمعاصى ، والكفر ، والشرك ، وأنواع الظلم ، هى شرور وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة ، لكنها

---

(١) ذوات الحمى (بضم المهملة وتخفيف الميم) ، وهو اسم كل شىء يلدغ أو يلسع كإبرة العقرب والزنبور والحية .

شرور ؛ لأنها أسباب الآلام ومفضية إليها كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها ، فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة ، وعلى الذبح والإحراق بالنار والخنق بالحبل وغير ذلك من الأسباب التى تصيبه مفضية إلى مسبباتها.

ولا بُدّ ما لم يمنع السببية مانعٌ أو يعارض السببَ ما هو أقوى منه ، وأشد اقتضاء لضدّه كما يعارض سببَ المعاصى قوةُ الإيمان وعظمة الحسنات الماحية وكثرتها ، فيزيد فى كميتها وكيفيتها على أسباب العذاب ، فيدفع الأقوى للأضعف . وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة كأسباب الصحة والمرض وأسباب الضعف والقوة .

والمقصود أن هذه الأسباب التى فيها لذة ما هى شرٌّ وإن نالت بها النفس مَسرَّةً عاجلةً ، وهى بمنزلة طعام لذيذ شهىّ لكنه مسموم ، إذا تناوله الآكل لذَّ لأكله ، وطابَ له مساغُه ، وبعد قليل يفعل به ما يفعل ، فهكذا المعاصى والذنوب ولا بُدّ ، حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده ، وهل زالت عن أحد قطُّ نعمةٌ إلا بشؤم معصيته ؟ فإن الله إذا أنعمَ على عبد بنعمة حفظَها عليه ولا يُغَيّرها عنه حتى يكون هو الساعى فى تغييرها عن نفسه ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوْا مَا بِأَنفُسِهِم وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ (١) .

ومَن تأمل ما قصَّ اللهُ فى كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم ، وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله .

وكذلك من نظر فى أحوال أهل عصره وما أزال الله عنهم من نعمه وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب كما قيل :

إذا كُنتَ فى نِعْمَةٍ فَارْعَهَا فإنَّ الْمَعَاصِى تُزِيلُ النِّعَـــم

فما حُفِظتْ نعمةُ الله بشىء قَطُّ مِثل طاعته ، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل

---

(١) الرعد ١١

شُكره ، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربّه ، فإنَّها نارُ النّعم التى تعمل فيها،كما تعمل النار فى الحطب اليابس ، ومن سافَر بفكره فى أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له . والمقصود أن هذه الأسباب شرورٌ ولا بُدَّ .

وأما كون مسبباتها شرورًا فلأنَّها آلامٌ نفسيةٌ وبدنيةٌ فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسّى ألمُ الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات . ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقَّه من الحذر والجد فى الهرب ، ولكن قد ضُرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً ؛ فلو تَيَقَّظ حق التيقظ لتقطعت نفسه فى الدنيا حسرات على ما فاته من حَظّه العاجل والآجل من الله ، وإنما يظهر له هذا حقيقةَ الظهور عند مفارقة هذا العالم ، والإشراف والإطلاع على عالم البقاء فحينئذ يقول : ﴿ يا لَيْتَنى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ (١) ، و﴿ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُّ فِى جَنْبِ الله ﴾ (٢) .

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبى ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إمَّا مُؤلِمٌ ، وإما سبب يُفضى إليه . فكان يتعوّذ فى آخر الصلاة من أربع ، وأمر بالاستعاذة منهن ، وهى : عذاب القبر وعذاب النار - فهذان أعظم المؤلمات - وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال ، وهذان سبب العذاب المؤلم:فالفتنة سبب العذاب ، وذكر الفتنة خصوصًا وعمومًا ، وذكر نوعى الفتنة لأنها إما فى الحياة وإما بعد الموت ففتنة الحياة قد يتراخى عنها العذاب مدة ، وأما فتنة الموت فيتصل بها العذاب من غير تراخٍ ؛ فعادت الاستعاذة إلى الألم والعذاب وأسبابها .

وهذا من آكد أدعية الصلاة حتى أوجب بعضُ السَّلَف والخلف الإعادة (٣) على من لم يَدعُ به فى التشهد الأخير.وأوجبه ابن حزم فى كل تشهد فإن لم يأت به فيه بطلت صلاته .

ومن ذلك قوله ما رواه البخارى والترمذى وأحمد :

---

(١) الفجر : ٢٤ (٢) الزمر : ٥٦ (٣) إعادة الصلاة مرة أخرى

« اللَّهُمَّ إنى أعوذ بك من الهمّ والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن ، والبخل ، وضلع الدين وغلبة الرجال » (١) .

فاستعاذ من ثمانية أشياء كل اثنين منها قرينان : (فالهم والحزن) : قرينان وهما من آلام الروح ومعذباتها . والفرق بينهما : أن الهَمَّ توقُّع الشر فى المستقبل ، والحزن التألم على حصول المكروه فى الماضى أو فوات المحبوب ، وكلاهما تألم ، وعذاب يرد على الروح ، فإن تعلق بالماضى سُمّى حزنًا ، وإن تعلق بالمستقبل سمّى هما .

(والعجز والكسل) قرينان ، وهما من أسباب الألم ؛ لأنهما يستلزمان فوات المحبوب ، فالعجز يستلزم عدم القدرة ، والكسل يستلزم عدم إرادته ؛ فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل .

(والجبن والبخل) قرينان ؛ لأنهما عدم النفع بالمال والبدن ، وهما من أسباب الألم ؛ لأنَّ الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة لا تنال إلا بالبذل والشجاعة ، والبخل يحول بينه دونها أيضًا فهذان الخلقان من أعظم أسباب الآلام .

(وضلع الدين وقهر الرجال) قرينان ، وهما مؤلمان للنفس مُعذّبان لها ، أحدهما : قهرٌ بحق ، وهو ضلع الدين . والثانى : قهر بباطل ، وهو غلبة الرجال ، وأيضًا فضلع الدين ، قهر بسبب من العبد فى الغالب ، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره .

ومن ذلك تعوذه ﷺ : « من المأثم والمغرم » رواه البخارى ومسلم .

فإنهما يسببان الألم العاجل ، ومن ذلك قوله :

« أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك » .

فالسخط سبب الألم ، والعقوبة هي الألم ، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها .

* * *

---

(١) ضلع الدين معناه : غلبة ديونه ، فلا يقدر على سدادها فيحزن

obeikan.com

المبحث الخامس

الحسد ، وقيده ، ومراتبه :

- لماذا قيد الحسد بقوله سبحانه : ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ ؟
- وهل يحسد المؤمن ؟
- مراتب الحسد أربعة .
- الغبطة مجاز فى الحسد .
- المعوذتان دواء للمحسود .

يقول ابن القيم :

obeikan.com

obeikan.com

الحسد ، وقيده ، ومراتبه

قد يكون عند الرجل حسد ولكن يُخفيه ، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما : لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده ، بل يجد فى قلبه شيئًا من ذلك ، ولا يعاجل أخاه إلا بما يحبُّ الله ، فهذا لا يكاد يخلو منه أحدٌ إلا من عصمه الله .

وقيل للحسن البصرى : أيَحسُدُ المؤمنُ ؟ قال : ما أنساك إخوة يوسف !

* لكن الفرق بين القوة التى فى قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر لها ، بل يعصيها طاعة لله وخوفًا وحياء منه وإجلالاً له أن يكره نعمه على عباده ؛ فيرى ذلك مخالفة لله ، وبغضًا لما يحب الله ، ومحبة لما يبغضه ، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك ، ويلزمها بالدعاء للمحسود وتمنى زيادة الخير له ، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسد ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح فهذا الحسد المذموم ، هذا كله حسدُ تمنّى الزوال .

الثانية : تمنّى استصحاب عدم النعمة : فهو يكره أن يُحدث الله لعبده نعمةً، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله ، أو فقره ، أو ضعفه ، أو شتّاتِ قلبه عن الله ، أو قلة دينه ، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب .

فهذا حسد على شىء مقدر ؛ والأول حسد على شىء محقق ، وكلاهما حاسدٌ عدوٌ نعمة الله وعدوٌ عباده ، ومقوتٌ عند الله تعالي وعند الناس ، ولا يسودُ أبدًا ، ولا يُواسى ؛ فإن الناس لا يُسوِّدُون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم ، فأما عدوٌ نعمة الله عليهم فلا يُسوِّدُونه باختيارهم أبدًا ، إلا قهرًا يعدونه من البلاء والمصائب التى ابتلاهم الله بها ؛ فهم يبغضونه وهو يبغضهم.

* والحسد الثالث : حسد الغبطة ، وهو : تمنّى أن يكون له مثل حال

المحسود من غير أن تزول النعمة عنه ، فهذا لا بأس به ولا يعاب صاحبه بل هذا قريب من المنافسة وقد قال تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (١) .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « لا حَسَدَ إلا فِى اثْنَتَيْنِ : رجلٌ آتاه اللهُ مالاً وَسَلَّطَه على هَلَكَتِه فِى الحَقِّ ، ورجلٌ آتاه اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِى بِهَا ، ويُعَلِّمُهَا النَّاس » (٢) .

فهذا حسد غبطة ، الحاملُ لصاحبه عليه كبرُ نفسه ، وحبُّ خصال الخير ، والتشبّهُ بأهلها والدخول فى جملتهم ، وأن يكون من سُبَّاقهم وعليتهم ومُصَلّيهم لا من فساكلهم (٣) ؛ فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقةُ والمسارعة مع محبته لمن يغبطه ، وتمنّى دوام نعمة الله عليه ؛ فهذا لا يدخل فى الآية بوجه ما .

فهذه السورة من أكبر أدوية المحسود ؛ فإنها تتضمَّن التوكُّل على الله ، والالتجاء إليه ، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة . فهو مستعيذٌ بوليّ النعم ومُوَلّيها ، كأنه يقول : يا مَن أولانى نعمتَه ، وأسداها إلىَّ ! أنا عائذٌ بك من شرّ من يُريد أن يستلبها منّى ويزيلها عنى .

وهو حسبُ من تَوكَّل عليه ، وكفى من لجأ إليه ، وهو الذى يُؤْمن خوفَ الخائف ، ويُجير المستجيرَ ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

فَمَن تولاه ، واستنصرَ به ، وتوكَّلَ عليه ، وانقطع بكليته إليه ، تولاه وحَفظه وحَرَسَه وصانه .

---

(١) المطففين : ٢٦ (٢) خرجه البخارى وأحمد فى « المسند » .

(٣) فساكل جمع فِسكِل (بكسر الفاء والكاف) أو فُسكل (بضمهم) ، وهو آخر الخيل الذى يجىء فى آخر الحلبة ، وأولها المجلى ، وهو السابق ، ثم المصلى ، ثم المسلى ، ثم التالى ، ثم العاطف ، ثم المرتاح ، ثم المؤمل ، ثم الحطى ، ثم اللطيم ، ثم السكيت ، وهو الفسكل ، راجع اللسان .

ومَن خافَه واتَّقاه أَمَّنَه مما يخاف ويحذر ، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ، وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (١) .

فلا تستبطىء نصره ورزقه وعافيته ، فإن الله بالغٌ أمره ، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا لا يتقدَّمُ عنه ولا يتأخر ، ومن لم يَخَفْ الله أخافَه من كل شيء ، وما خافَ أحدٌ غير الله إلا لَنَقص خوفه من الله ، قال تعالى :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

وقال :

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

أى يُخوِّفُكُم بأوليائه ، ويُعظِّمهم فى صدوركم فلا تخافوهم وأفردونى بالمخافة أكفكم إياهم .

* * *

(١) الطلاق : ٢ ، ٣ (٢) النحل : ٩٨ - ١٠٠ (٣) آل عمران : ١٧٥

obeikan.com

المبحث السادس

القول فى تفسير سورة الناس

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾

بين يدى سورة « الناس » :

- المستعاذ به هنا : هو الرب ، والملك ، والإله .
- ما معنى الإضافات الثلاث : رب ، ملك ، إله .. إلى الناس ؟
- الإضافات تذكرنا بأننا عبيد الله وليس لنا سواه .
- وتنتظم أسماء الله الحسنى .
- وتشمل قواعد الإيمان .

obeikan.com

● **الفرق بين المستعاذ منه فى « المعوّذتين » :**

المستعاذ منه فى سورة « الفلق » ، هو : الشر الخارجى ، والحاصل من ظلم الغير : بالسحر ، والحسد ، والإيذاء . . أى من شر المصيبات .

والمستعاذ منه فى سورة « الناس » ، هو الشر الداخلى ، والناشىء من عيوب الوسوسة ، وما يعتمل فى القلب من حقد ، وغل وغش فى قلوب الثقلين : (الإنس والجن) .

هل لنفوس الحاسدين وأعينهم تأثير على غيرهم ؟

وهل للأرواح الشيطانية تأثير بواسطة السحر والنفث فى العقد ؟

للعلماء فى هذا وذاك آراء .

العلاج لدفع شرّ الحاسد ، والعائن ، والساحر .

❊ ❊

● **الفرق بين المستعاذ منه فى السورتين :**

وهذه السورة - الناس - مشتملة على الاستعاذة من (الشر) الذى هو سبب الذنوب والمعاصى كلها : هو (الشر) الداخل فى الإنسان الذى هو منشأ العقوبات فى الدنيا والآخرة .

فسورة (**الفلق**) : تضمنت الاستعاذة من الشر الذى هو ظلم الغير له بالسحر والحسد ، وهو شر من خارج (*)

وسورة (**الناس**) : تضمنت الاستعاذة من **الشر** الذى هو سبب ظُلم العبد نفسَه وهو شرٌ من داخل .

(*) أقول : ومن الشر العام من المخلوقات ، والغاسق إذا وقب ، فضلاً عن السحر والحسد ، وكل ما يزعج الإنسان ، وينغص عليه حياته ، ويفسد معيشته ، وأمنه النفسى والخارجى .

فالشر الأول : لا يدخل تحت التكليف ولا يُطلب منه الكفُّ عنه ؛ لأنه ليس من كسبه .

والشر الثانى فى سورة (الناس) : يدخل تحت التكليف ، ويتعلق به النهى ؛ فهذا شرُّ المعائب ، والأول شر المصائب ، والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ، ولا ثالث لهما .

فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات ، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التى أصلها كلها الوسوسة .

* *

● **رأى العلماء فى تأثير أعين الحاسدين :**

فقد عرفت بعض ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة المهمة التى لا غنى للعبد عنها فى دينه ودنياه ؛ ودلَّت على أن نفوس الحاسدين وأعيُنَهم لها تأثير ، وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنفث فى العقد .

وقد افترق العلماء فى هذا المقام أربع فرق :

الفرقة الأولى : أنكرت تأثير هذا وهذا ، وهم فرقتان : فرقة اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن ، وأنكرت تأثيرهما ألبتة . وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقُوى والتأثيرات .

وفرقة أنكرت وجودَهما بالكلية ، وقالت : لا وجود لنفس الآدمى سوى هذا الهيكل المحسوس وصفاته وأعراضه فقط ، ولا وجود للجن والشياطين سوى أعراض قائمة به .

وهذا قول كثير من ملاحدة الطائعيين وغيرهم من الملاحدة المنتسبين إلى الإسلام ، وهو قول شذوذ من أهل الكلام الذين ذمهم السَّلَف ، وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة .

* *

* الفرقة الثانية : أنكرت وجود النفس الإنسانية المفارقة للبدن ، وأقرت بوجود الجن والشياطين ، وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم .

* *

* الفرقة الثالثة : بالعكس أقرت بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن ، وأنكرت وجود الجن والشياطين ، وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها . وهذا قول كثير من الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم . وهؤلاء يقولون : إن ما يوجد فى العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة فهى : من تأثيرات النفس ، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها بغير واسطة شيطان منفصل .

وابن سينا وأتباعه على هذا القول . حتى أنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب ، ويقولون : إنما هى من تأثيرات النفس فى هيولى العالم ، وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملل ، ليسوا من أتباع الرسل جملة [1] .

* *

* الفرقة الرابعة : وهم أتباع الرسل وأهل الحق أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن ، وأقروا بوجود الجن والشياطين ، وأثبتوا ما أثبته الله تعالي من صفاتهما وشرهما ، واستعاذوا بالله منه ، وعلموا أنه لا يعيذهم منه ولا يجيرهم إلا الله .

فهؤلاء أهل الحق ، ومَن عداهم مفرط فى الباطل ، أو معه باطل وحقٌ ، والله يهدى من يشاء إلى الصراط المستقيم .

* *

● وجه الإضافات المتتالية فى أول سورة الناس :

سورة الناس تضمنت أيضًا استعاذة ، ومستعاذًا به ، ومستعاذًا منه . فالاستعاذة تقدمت ، وأما المستعاذ به فهو الله : ﴿ رَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ ﴾ [2] ، فذكر ربوبيته للناس ، وملكه إياهم ، وإلاهيته لهم .

---

(١) أقول : إلا إذا تابوا وأنابوا .

(٢) تكرار الناس ، الناس الناس: أظهر فى مقام الإضمار لقصد تأكيد ربوبيته سبحانه وملكه وإلأهيته للناس كلهم .

ولا بد من مناسبة فى ذكر ذلك فى الاستعاذة من الشيطان كما تقدم ، فنذكر أولاً معنى هذه الإضافات الثلاث ، ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة :

❊ ❊

● وجه الإضافات الثلاث :

(الإضافة الأولى) : ﴿ رَبِّ النَّاسِ ﴾ [1] إضافة الربوبية امتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه ، ودفع الشر عنهم وحفظهم مما يفسدهم . هذا معنى ربوبيته لهم . وذلك يتضمن قدرته التامة ورحمته الواسعة وإحسانه ، وعلمه بتفاصيل أحوالهم ، وإجابة دعواتهم وكشف كرباتهم . .

(الإضافة الثانية) : ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ إضافة الملك : فهو ملكهم المتصرف فيهم ، وهم عبيده ومماليكه ، وهو المتصرّف لهم ، المُدبّر لهم ، كما يشاءَ النافذ القدرة فيهم ، الذى له السلطان التام عليهم ، فهو ملكهم الحق : الذى إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب ، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجأهم ، فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وبتدبيره ، فليس لهم ملكٌ غيره يهربون إليه إذا دَهمهم العدوُ ، ويستصرخون به إذا نزل العدُو بساحتهم .

❊ ❊

(الإضافة الثالثة) : ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ : إضافة الإلهية : فهو إلَههم الحقُّ ، ومعبودهم الذى لا إله لهم سواه ، ولا معبود لهم غيره . فكما أنَّه وحده هو ربُّهم ومَليكهم ، لم يشركه فى ربوبيته ، ولا فى ملكه أحدٌ ، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم ، فلا ينبغى أن يجعلوا معه شريكًا فى إلهيته ، كما لا شريك معه فى ربوبيته وملكه .

وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة .

= - (والناس) فى آخر السورة : لبيان أحد صنفى الذى يوسوس فى صدور الناس ، ودلك غير ماصدق كلمة الناس فى أول السورة ، وسر الإضافات أن عطف البيان يقتضى الإظهار .

(١) هو رب من يلقون الشر ليصرفهم ، ومن يلقى إليهم الشر ليُصرف عنهم .

وإذا كان وحده هو ربُّنا ومَلِكنا وإلهنا : فلا مفزع لنا فى الشدائد سواه ، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه ، ولا معبود لنا غيره ؛ فلا ينبغى أن يُدعى ولا يُخاف ولا يُرجى ولا يُحبّ سواه ، ولا يُذَلُّ لغيره ، ولا يُخضع لسواه ، ولا يُتَوكل إلا عليه ؛ لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه :

إمَّا أن يكون مُربِّيك ، والقيّم بأمورك ، ومتولى شأنك وهو ربُّك فلا رب سواه .

أو تكون مملوكه وعبده الحق ، فهو مَلِك الناس حقًا وكلهم عبيده ومماليكه .

أو يكون معبودك وإلهك الذى لا تستغنى عنه طرفة عين ، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك ، وهو الإله الحق إله الناس الذى لا إله لهم سواه . فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم حديرون أن لا يستعيذوا بغيره ، ولا يستنصروا بسواه ، ولا يلجؤا إلى غير حماه : فهو كافيهم وحسبهم ، وناصرهم ووليهم ، ومتولى أمورهم جميعًا بربوبيته وملكه وإلهيته لهم ، فكيف لا يلتجئ العبدُ عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه وإلهه .

فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة من أعدى الأعداء ، وأعظمهم عداوةً ، وأشدهم ضررًا وأبلغهم كيدًا .

* *

ثم إنه سبحانه كَرَّر الاسم الظاهر [1] ، ولم يوقع المضمر موقعه فيقول : « رب الناس ، وملكهم ، وإلههم » . . تحقيقًا لهذا المعنى وتقويةً له ، فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه .

ولم يعطف بالواو [2] ؛ لما فيها من الإيذان بالمغايرة ، والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفةٌ واحدة .

---

(١) الناس ، والناس .

(٢) وملك ، وإله

وَقَدَّم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب .

وأخَّر الإلهية لخصوصها ؛ لأنه سبحانه إنما هو إله مَنْ عبده ووَحَّده واتخذه دون غيره إلهًا ، فمن لم يعبده ويُوحّده ، فليس بإلهه ، وإن كان فى الحقيقة لا إله له سواه ، ولكن ترك إلهه الحق واتخذ إلهًا غيره .

ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية ؛ لأن الملك هو المتصرف بقوله ، وأمره : فهو المُطاع إذا أمر ، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم ، فملكه من كمال ربوبيته ، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه ؛ فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه ، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها : فهو الرب الحق ، الملك الحق ، الإله الحق ؛ خَلَقَهم بربوبيته ، وقهرهم بمُلكه ، واستعبدهم بإلهيته .

فتأمل هذه الجلالةَ وهذه العظمةَ التى تضمنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام ، وأحسن سياق : ﴿ رَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ﴾ .

* *

● تضمن الإضافات لقواعد الإيمان :

وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان ، وتضمنت معانى أسمائه الحسنى .

أما تضمنها لمعانى أسمائه الحسنى : فإن (الرَّبَّ) هو القادر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الحى ، القيوم ، العليم ، السميع ، البصير ، المحسن ، المنعم ، الجوّاد ، المعطى ، المانع ، الضّار ، النافع ، المقدّم ، المؤخّر ، الذي يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ويُسعد من يشاء ، ويُشقى ، ويُعزُّ من يشاء ، ويُذلُّ من يشاء . . إلى غير ذلك من معانى ربوبيته التى له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى .

* وأما (الملك) فهو الآمر ، الناهى ، المُعزّ ، المُذل ، الذى يَصرفُ أمور عباده ، كما يُحبّ ، ويُقلبهم كما يشاء ، وله من معنى الملك ما يستحقه من

الأسماء الحسنى : كالعزيز ، الجبار ، المتكبر ، الحكَم ، العدل ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، العظيم ، الجليل ، الكبير ، الحسيب ، المجيد ، الوالى ، المتعالى ، مالك الملك ، المقسط ، الجامع .. إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى (المَلِك) .

* وأما (الإله) فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال ، فيدخل فى هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى ؛ ولهذا كان القول الصحيح : أن (الله) أصله الإله كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذَّ منهم ، فإن اسم (الله) تعالى هو الجامع لجميع معانى الأسماء الحسنى والصفات . العُلى : فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معانى أسمائه الحسنى ، فكان المستعيذ بها جديرًا بأن يُعاذ ويُحفظ ويُمنع : من الوسواس الخناس لا يسلط عليه .

وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر .. وإنما غاية أولى العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه ، وإن باديه إلى الخافى يسير (١) .

* * *

(١) قرأت قديمًا أن الكاتب الكبير عباس محمود العقاد رحمه الله رحمه واسعة .. تعجب حين قرأ هذه السورة (الناس) فى إبان شبابه وظن أن التكرار غير مفيد .. ولما نضجت قراءته ومفاهيمه الإسلامية ، قال : إنها فى قمة البلاغة والبيان ، والإعجاز ، لأن الإنسان يحتاج للتربية قبل وبعد الولادة حتى يشب عن الطوق . ثم يأتى دور الملك أو الحاكم فى التهذيب والسلوك فى افعل أو لا تفعل ، وأن الإنسان بعدئذ بحاجة إلى أن يلبى أشواق روحه وروحانيته ليكون قريبًا من الخالق المنان ، وحين يلبى الإيمان والإسلام ما يحتاجه .. يصبح بشرًا سويًا ، يرضى عن نفسه ، وعن خالقه سبحانه .

المبحث السابع

● **الوسواس الخناس ومراتب شره (*) :**

أصل الوسوسة : الحركة ، أو الصوت الخفى الذى لا يحس فيحترز منه .

فهو الإلقاء الخفى فى النفس : إما بصوت خفى لا يسمعه إلا من ألقى إليه.

وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد ، ومنه وسوسة الحلى ، وهو حركته الخفية فى الأذن والظاهر - والله أعلم - أنها سميت وسوسة لقربها وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة من شياطين الإنس ، وهو الأذن .

ووسوسة الشيطان محلها القلب ؛ لأن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم . . قال الله تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ ، وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (٢) .

* *

فمن وسوسته وفساده لابن آدم ، ما جاء فى الحديث الصحيح :

عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

« إِذَا نُودِى بِالصَّلاةِ أَدبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُراطٌ ، فإذا قُضِى أَقْبَلَ ، فإذا ثُوِّبَ بها أدبَرَ ، فإذا قُضِى أَقبلَ ، حتى يخطُر بين الإنسان وقلبه ، فيقول : اذْكُرْ كذا أذكر كذا ، حتى لا يَدْرى أثلاثًا صَلَّى أم أربعًا ؟

---

(١) آل عمران : ١٥٤ .

(*) الوسواس : يشمل الشياطين التى تلقى الخواطر الشريرة ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ ويشمل الكلام الخفى من الناس: أصحاب المكائد والمؤامرات للأذى.

يوسوس : مجاز لعمل الشيطان ، إذ ليس له مجاز كلام فى باطن الإنسان . . . وحقيقه فى تسويس الإنسان لغيره عمل السوء .

جمع الله صنفى الموسوسين (من الجنة والناس) فى قوله تعالى : ﴿وكَذَلِك جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوا شياطِينَ الإنسِ وَالجِنِّ . . . غُروراً ﴾ الأنعام : ١١٢ ، ١١٣ .

فإذا لم يدر أثلاثًا صلى أم أربعًا سجدَ سَجدتى السَّهو » (١) .

ومن وسوسته ما ثبت فى الصحيح ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يأتى الشيطانُ أحدَكم فيقول مَن خلقَ كذا ؟ مَن خلق كذا ؟ حتى يقولُ مَن خَلَقَ الله ؟ فَمَن وجدَ ذلك . . فليَستعذ بالله ولينْتَه » (٢) .

وفى الصحيح أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : يا رسولَ الله ! إن أحدَنَا ليجد فى نفسه ما لأن يَخرَّ من السماء إلى الأرض أحبُّ إليه من أن يتكلم به قال : « الحمدُ لله الَّذى ردَّ كَيْدَه إلى الْوَسْوَسَة » (٣) .

ومن وسوسته أيضًا أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله ، ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه ، قال تعالى حكاية عن صاحب موسى عليه السلام ، أنه قال : ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ (٤) .

* وتأمل حكمة القرآن وجلالته ، كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه : الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ، ولم يقل من شر وسوسته ؛ لتعم الاستعاذة شره جميعه .

فإن قوله : ﴿ من شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ يعم كل شره .

ووَصفَه بأعظمَ صفاته وأشدها شرًا وأقواها تأثيرًا وأعمها فسادًا وهى الوسوسة التى هى مبادئ الإرادة .

فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية . . فيُوسوس إليه ويُخطر الذنبَ بباله ؛ فيصوّره لنفسه ويُمنّيه ويُشَهّيه ، فيصير شهوة ويُزَيّنهاله ، ويُحَسّنها ويُخَيّلها له فى خيال تميل نفسه إليه ؛ فيصير إرادة ، ثم لا يزال يُمثّل ويُخيّل ويُمنّى ويُشهّى وينسى علمه بضررها ، ويطوى عنه سوء عاقبتها ؛ فيحول بينه وبين مطالعته ، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط ، وينسى ما وراء

---

(٢) رواه البخارى ، ومسلم وغيرهما . ومن النوادر ماروى عن أبى حنيفة - رضى الله عنه - أن رجلا قال له : وضعت كنزا فى مكان ثم نسيته . فقال الإمام بعد صلاة العشاء وسننها . . انشط فى التنفل لله بالصلاة تجد الكنز وامتثل الرجل وفى أول ركعة فى التنفل . . تذكر مكان الكنز ؛ فقطع الصلاة ونام مسرورا (لأن الشيطان أفسد عليه تنفله) وأخبر الرجل الإمام فى الصباح . . فقال الإمام : هلا أتممت النفل بقية الليل شكراً لله تعالى ؟ .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم . (٣) فى « شعب الإيمان » . (٤) الكهف : ٦٣

ذلك فتصير الإرادة عزيمة جازمة ، فيشتد الحرص عليها من القلب ، فيبعث الجنود فى الطلب فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونًا ، فإن فتروا حرّكهم ، وإن ونَوا أزعجهم ، كما قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ (١) .

أى تُزعجهم إلى المعاصى إزعاجًا كلما فَتروا أو ونَوا أزعجتهم الشياطين وأزّتْهُم (٢) وأثارتهم ، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب . وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة :

قد رضى (إبليس) لنفسه بالقيادة لفجرة بنى آدم ، وهو الذى استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم ، فلا بتلك النخوة والكبر ولا يرضاه أن يصير قوّادًا لكل من عصى الله ، كما قال بعضهم :

عجبت من إبليس فى تيهه ... وقبح ما أظهر من نخوته

تاه على آدم فى سجدة ... وصار قوّادًا لذريته

* *

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة ، فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها أهمَّ من كل مستعاذ منه ، وإلا فشرّه بغير الوسوسة حاصل أيضًا .

فمن شرّه إنه لصٌّ سارقٌ لأموال الناس ، فكُلّ طعام أو شراب لم يُذكر اسمُ الله عليه فله فيه حظٌّ بالسرقة والخطف ؛

وكذلك يَبيتُ فى البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله ، فيأكل طعامَ الإنس بغير إذنهم ، ويبيت فى بيوتهم بغير أمرهم ، فيدخل سارقًا ، ويخرج مُغيراً .

---

(١) مريم : ٨٣

(٢) وتأمل أزتهم لما فى الهمزة من الشدة أكثر مما لو قال : تهزهم هزًّ .

ويدلُّ على عوراتهم فيأمر العبدَ بالمعصية ، ثم يُلقى فى قلوب الناس يقظةً ومنامًا أنه فعل كذا وكذا .

ومن هذا : أن العبد يفعلُ الذنبَ لا يطلع عليه أحدٌ من الناس فيُصبح والناس يتحدثون به ، وما ذاك إلا أن الشيطان زيَّنَه له وألقاه فى قلبه ، ثم وسوس إلى الناس بما فعل ، وألقاه إليهم ، فأوقعه فى الذنب ثم فضحه به ؛ فالرب تعالى يستُره ، والشيطان يَجهدُ فى كشف ستره وفضيحته ، فيغترُّ العبدُ ويقول : هذا ذنب لم يره إلا الله ، ولم يشعر بأن عدُوَّه ساعٍ فى إذاعته وفضيحته ، وقلّ من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة .

* *

* ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقدًا تمنعه من اليقظة كما فى صحيح البخارى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَعقدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدكم إذا هو نامَ ثلاث عُقَد ، يضربُ على كل عُقدة مكانَها : عليكَ ليلٌ طويلٌ فَارقُدْ ، فإن استيقظَ فذكرَ اللهَ انحلَّتْ عقدةٌ ، فإن توضَّأ انحلَّتْ عقدةٌ ، فإن صَلَّى انحلَّتْ عُقَدُه كلُّها ، فأصبح نشيطًا طيِّبَ النفس ، وإلا أصبحَ خبيثَ النفس كسلانَ » (١) .

* *

* ومن شره أنه يبول فى أذن العبد حتى ينام إلى الصباح ، كما ثبت عن النبى ﷺ أنه ذكر عنده رجل نام ليله حتى أصبح (٢) قال : « ذَاكَ رجُلٌ بالَ الشيطانُ فى أُذُنَيْه ، أو قَالَ فِى أُذُنِه » (٣) .

* *

* ومن شره أنه قعد لابن آدم بطُرق الخير (٤) كلها ، فما من طريق من

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه ، ومالك ، وأحمد .
(٢) وفاتته صلاة الصبح قبل طلوع الشمس .
(٣) رواه البخارى ، ورواه النسائى ، وابن ماجة ، وأحمد .
(٤) جاء ذلك فى حديث رواه أحمد ، والنسائى ، ورواه البيهقى .

طُرق الخير إلا والشيطان مُرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلُكه ، فإن خالفه وسلكه ثَبَّطَه فيه وعَوَّقَه وشوَّش عليه بالمعارضات والقواطع ، فإن عمل عمله ، وفرغ منه قَيَّض له ما يُبطل أثره ويُرده على حافرته .

* *

● **جهوده ضد بنى آدم** (١) :

ويكفى من شره أنه أقسمَ بالله ليقعدنَّ لبنى آدم صراطَه المستقيم ، وأقسم ليأتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم . ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة ، وبالغ فى الحيلة حتى أخرج آدمَ من الجنة ، ثم لم يكفه ذلك حتى استقطعَ من أولاده شُرطَةً للنار من كل ألف . . تسعمائة وتسعة وتسعين .

ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلةَ فى إبطال دعوة الله من الأرض ، وقصد أن تكون الدعوة له ، وأن يُعبد من دون الله ، فهو ساعٍ بأقصى جهده على إطفاء نورِ الله ، وإبطال دعوته ، وإقامة دعوة الكفر والشرك ، ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض .

* *

● **تصديه لأنبياء الله تعالى ورسله** :

ويكتفى من شره أنه تصدّى لإبراهيم خليل الرحمن ﷺ حتى رماه قومه بالمنجنيق فى النار ، فردَّ اللهُ كيدَه عليه ، وجعل النار على خليلة بردًا وسلامًا .

وتصدَّى للمسيح ﷺ حتى أراد اليهودُ قتلَه وصلبه ، فرد الله كيدَه وصانَ المسيح ورفعَه إليه .

وتصدى لزكريا ويحيى - عليهما السلام - حتى قُتلاً .

واستثار فرعون حتى زَيَّنَ له الفسادَ العظيم فى الأرض ودعوى أنه ربهم الأعلى .

---

(١) بعد كل ما تقدم من شرور وآثام .

وتصدى للنبى ﷺ وظاهرَ الكفارَ على قتله بجهده ، والله تعالى يكبته ويرده خاسئًا .

وتفلَّت على النبى ﷺ بشهاب من نار يريد أن يرميه به وهو فى الصلاة ، فجعل النبى ﷺ يقول : ألعنك بلعنة الله [1] .

وأعان اليهود على سحرهم [2] للنبى ﷺ . .

فإذا كان هذا شأنه وهمّته فى الشر . . فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاذته ؟

ولا يمكن حصر أجناس شره فضلاً عن آحادها ، إذ كل شَرّ فى العالم فهو السبب فيه ، ولكن ينحصر شره فى ستة أجناس لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحدًا منها أو أكثر .

❊ ❊

● انحسار شره فى ستة أجناس :

(الشر الأول) شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله ، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم بردَ أنينُه ، واستراح من تعبه معه ، وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتى يناله منه ؛ فإذا نال ذلك صيَّره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله ، فصار من دُعاة إبليس ونُوَّابه ، فإن يأس منه من ذلك ، وكان ممن سبق له الإسلام فى بطن أمه نقله إلى :

❊ ❊

● المرتبة الثانية من الشر :

وهى البدعة ، وهى أحب إليه من الفسوق والمعاصى ؛ لأن ضررها فى نفس الدين ، وهو ضرر متعدّ ، وهى ذنبٌ لا يُتاب منه . وهى مخالفة لدعوة الرُّسل ، ودعا إلى خلاف ما جاءوا به ، وهى باب الكفر والشرك .

---

(١) رواه البخارى ، وأحمد فى« المسند »

(٢) بعض العلماء يرى أن النبى لم يسحر ، لأن الله عصمه من السحر ، راجع تفسير العلامة : ابن عاشور فى تفسير التنوير والتحرير فى تفسير الفلق فى ملحق بآخر هذا الكتاب .

فَإِذَا نال منه البدعة وجعله من أهلها .. بقى أيضًا نائبه وداعيًا من دُعاته . فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ، ومعاداة أهل البدع والضلال ، نقله إلى :

❊ ❊

● المرتبة الثالثة من الشر :

وهى الكبائر على اختلاف أنواعها : فهو أشدُّ حرصًا على أن يُوقعه فيها ، ولا سيما إن كان عالمًا متبوعًا ، فهوحريص على ذلك لينفرَ النَّاسُ عنه ، ثم يُشيع من ذنوبه ومعاصيه فى الناس ، ويستنيب منهم من يشيعها ويُذيعها .. تديُّنًا وتقربًا بزعمه إلى الله تعالى ، وهو نائب إبليس ولا يشعر ؛ فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم .. هذا إذ أحبُّوا إشاعتها وإذاعتها ، فكيف إذا تولَّوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم ، ولكن طاعةً لابليس ونيابةً عنه ؟ كل ذلك لينفر الناس عنه ، وعن الانتفع به .

وذنوبُ هذا ولو بلغت عنان السماء أهونُ عند الله من ذنوب هؤلاء ؛ فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفرَ اللهَ وتابَ إليه ، قبلَ الله توبته ، وبَدَّل سيئاته حسنات .

وأما ذنوب أولئك فظُلم للمؤمنين وتتبُّعٌ لعورتهم ، وقصدٌ لفضيحتهم والله سبحانه بالمرصاد لا تخفى عليه كمائن الصدور ، ودسائسُ النفوس .. فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى :

❊ ❊

● المرتبة الرابعة :

وهى الصغائر التى إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها ، كما قال النبى ﷺ :

« إيَّاكُم ومُحَقّراتِ الذنوب ، فإنَّ مثل ذلك : مثل قومٍ نزلوا بفلاةٍ من الأرض » (١) .

---

(١) روى عن عدد من الصحابة ، وأخرجه أبو الشيخ ، من حديث عبد الله بن مسعود ، وانظر فيه تخريجه .

وذكر حديثًا معناه : أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا نارًا عظيمة فطبخوا واشْتَوَوا .

ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها فيكون صاحبُ الكبيرة الخائفُ منها أحسنَ حالاً منه ، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى :

* *

● **المرتبة الخامسة** :

وهى إشغاله بالمباحات التى لا ثَواب فيها ولا عقاب ، بل عاقبتُها فوت الثواب الذى ضاع عليه باشتغاله بها ، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظًا لوقته شحيحًا به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب ، نقله إلى :

* *

● **المرتبة السادسة** : وهى أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ؛ ليزيح عنه الفضيلة ، ويُفَوّته ثواب العمل الفاضل ؛ فيأمره بفعل الخير المفضول، ويحُضّه عليه ويُحسنه له إذا تضمّن ترك ما هو أفضل وأعلى منه ، وقَلَّ من يتنبَّه لهذا من الناس ، فإنه إذا رأى فيه داعيًا قويًا ومحركًا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعةٌ وقُربةٌ . . فإنه لا يكاد يقول : إن هذا الداعى من الشيطان ، فإن الشيطان لا يأمر بخير ، ويرى أن هذا خير ؛ فيقول : هذا الداعى من الله وهو معذورٌ ، ولم يصل علمُه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير إمّا ليتوصَّل بها إلى باب واحد من الشر . وإما ليُفَوّت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا ، وأجلّ وأفضل .

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفُه فى قلب العبد يكون سببه تجريدَ متابعة الرسول ﷺ ، وشدّة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه وأرضاها له وأنفعها للعبد ، وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده

المؤمنين ، خاصتهم وعامتهم . ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ونُوّابه فى الأُمة وخلفائه فى الأرض وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك ، فلا يخطُر بقلوبهم والله يَمُنُّ بفضله على من يشاء من عباده .

* *

● **التشويش والتشويه بعد كل ما سبق :**

فإذا أعجزه العبدُ من هذه المراتب الست ، وأعيَ عليه : سَلَّط عليه حزبَه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه ، وقصد إخماله وإطفاءه ليشوّش عليه قلبه ، ويشغل بحربه فكره ، ويمنع الناس من الانتفاع به ، فيبقى سعيه فى تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه ، لا يفتر ولا ينى . . فحينئذ يلبس المؤمنُ لأمةَ الحرب ، ولا يضعها عنه إلى الموت ؛ ومتى وضعها أُسِر أو أصيب ، فلا يزال فى جهاد حتى يلقى الله .

فتأمّل هذا الفصل وتدبَّر موقعه وعظيم منفعته واجعله ميزانك تزن به الناس، وتزن به الأعمال ؛ فإنه يُطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق والله المستعان وعليه التكلان ، ولو لم يكن فى هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعًا لمن تدبره ووعاه (١) .

* *

● **وما هو الخناس ؟**

هو فعال من خنس يَخْنِسُ : إذا توارى واختفى .

وحقيقة اللفظ : اختفاء بعد ظهور ، فليست لمجرد الاختفاء .

---

(١) نقلنا الاشتقاق فى (الوسواس الخناس) إلى قسم اللغويات ، فراجعه هناك .

وهل هى الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى ؟

أو هى الكواكب السبعة السيارة ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق ؟

قالوا : وأصل الخنوس : الرجوع إلى الوراء .

فهو مأخوذ من الاختفاء ، والرجوع والتأخر ؛ فإن العبد إذا غفل عن ذكر ربه جثم الشيطان على قلبه ووسوس .

فإذا ذكر العبد ربه انخنس وتوارى ؛ فذكر الله كمقمعة يقمع بها الشيطان وسياط تؤذيه .

ومن ثم فشيطان المؤمن هزيل ضئيل بما يعذبه المسلم من ذكر الله ، وعمل الصالحات . .

وجاء بناء الوسواس مكررًا لتكرير الوسوسة . . وجاء بناء الخناس على وزن فعّال ؛ لأنه يتكرر منه نوع الفعل ، لأنه كلما ذكر الله انخنس . . وإذا غفل عن الذكر عاد . . فطابق اللفظ المعنى .

* * *

(*) أقول : وقد يدفع الشيطان الإنسان إلى عمل الخير والبرّ فى أبواب كثيرة حتى يستطيع من خلالها التسلط عليه بباب واحد من الشر ، يغتر به ؛ فيؤخذ من هذا الجانب ، أو يسلط عليه جنده بالأذى والوسوسة ؛ لإبعاده عن ذكر الله تعالى ، وعن الصلاة وسائر الطاعات .

المبحث الثامن

● ما يندفع به شر الحاسد ، والعائن ، والساحر :

- التعوذ بالله تعالى والتحصن به .
- تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه .
- الصبر على عدوه وكيده ومكره .
- التوكل على الله حق التوكل .
- فراغ القلب من الاشتغال به والتفكير فيه .
- الإقبال على الله والإخلاص له ومحبته وترضيه .
- تجريد التوبة إلى الله من الذنوب .
- التصدق والإحسان عامة .
- الإحسان إلى من يؤذيك .
- تجريد التوحيد ، واعتقاد أن النافع والضار هو الله تعالى .

يقول رحمه الله تعالى :

يندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب :

أحدها : التعوُّذ بالله من شره ، وانتحصن به ، واللجأ إليه ، وهو المقصود بهذه السورة ، والله تعالى سميع لاستعاذته ، عليم بما يستعيذ منه .

والسمع هنا المراد به سمع الإجابة لا السمع العام ، فهو مثل قوله : (سمع الله لمن حمده) ، وقول الخليل ﷺ : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (١) .

ومرة يقرنه بالعلم ، ومرة بالبصر ، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك ، فإنه

---

(١) إبراهيم : ٣٩

يستعيذ به من عدُوّ يعلم أن الله يَراه ويعلم كيدَه وشرَّه ، فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميعٌ لاستعاذته ، أى : مجيب عليم بكيد عدُوِّه يراه ويبصره ، لينبسط أمل المستعيذ ، ويقبل بقلبه على الدعاء .

وتأمَّل حكمةَ القرآن كيف جاء فى الاستعاذة من الشيطان الذى نعلم وجوده ولا نراه ، بلفظ : « السميع العليم » فى الأعراف (١) ، وحَم السجدة (٢) ، وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يُؤنَسون ويُرَون بالأبصار ، بلفظ «السميع البصير » ، حيث يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٣) .

لأن أفعال هؤلاء (الإنس) أفعال معاينة ترى بالبصر ، وأما نزغ (الشيطان) فوساوس وخطرات يُلقيها فى القلب يتعلق بها العلمُ ؛ فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها ، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير فى باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية ، والله أعلم .

* *

(السبب الثانى) : تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه ، فمن اتقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره قال تعالى :

﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ (٤) .

وقال النبى ﷺ لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما :

« احفَظِ اللهَ يَحفَظْك ، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجَاهَك » (٥) .

---

(١) الأعراف : ٢٠٠ (٢) فصلت : ٣٦ (٣) المؤمن : ٥٦

(٤) آل عمران : ١٢٠ (٥) حديث مشهور أخرجه البيهقى .

فمن حفظ اللهَ حفظه الله ، ووجدَه أمامه أينما توجَّه ، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر ؟

* *

(السبب الثالث) : الصبر على عدوه ، وألا يقاتله ولا يشكوه ، ولا يُحدّث نفسه بأذاه أصلاً ، فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه والتوكل على الله ، ولا يستطل تأخيرَه وبغيه ، فإنه كلما بغي عليه كان بغيه جُندًا وقُوَّةً للمبغى عليه المحسود يقاتل به الباغى نفسه ، وهو لا يشعر ، فبغيُه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه ، ولو أرى المبغى عليه ذلك لسرَّه بغيه عليه ، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغى دون آخره ومآله ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ ﴾ (١) .

فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقَّه أولاً ، فكيف بمن لم يستوف شيئًا من حقه بل بُغِى عليه ، وهو صابرٌ ، وما من الذنوب ذنبٌ أسرعُ عقوبةً من البغى وقطيعة الرحم ، وقد سبقت سُنة الله : أنه لو بَغَى جبلٌ على جبل جعلَ الباغِى منهما دكًّا .

* *

(السبب الرابع) : التوكل على الله ؛ فمن يتوكَّلُ على الله فهو حسبُه ، والتوكل من أقوى الأسباب التى يدفع بها العبدُ ما لا يُطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم ، وهو من أقوى الأسباب فى ذلك : فإن الله حسبُه أى كافيه ، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدُوّه ، ولا يضرُّه إلا أذى (٢) لا بد منه : كالحر والبرد ، والجوع والعطش ، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدًا .

وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء له وهو فى الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذى يتشفى به منه .

---

(١) الحج : ٦٠ (٢) أذى ضئيل .

قال بعض السَّلَف : جعل الله لكل عمل جزاءً من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (١) .

ولم يقل : نؤته كذا وكذا من الأجر ، كما قال فى الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافى عبده المتوكِّل عليه وحسبه وواقيه ، فلو توكّل العبد على الله حق توكله . . وكادته السماوات والأرض ومن فيهنّ ، لجعل له مخرجًا من ذلك وكفاه ونصره .

وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه فى : (كتاب الفتح القدسى) ، وذكرنا هناك فساد من جعله من المقدمات المعلولة ، وأنه من مقامات العوام ، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة ، وبيّنّا أنه من أجَلّ مقامات العارفين ، وأنه كلّما علا مقامُ العبد كانت حاجتُه إلى التوكل أعظمَ وأشدَّ . وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكّله ، وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التى يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغى .

* *

(السبب الخامس) : فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خَطَر له : فلا يلتفت إليه ، ولا يخافه ، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه ، وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره ، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليُمسكه ويؤذيه ، فإذا لم يتعرَّض له ولا تماسك هو وإياه ، بل انعزل عنه لم يقدر عليه ؛ فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر .

وهكذا الأرواح سواء : فإذا علق روحه وشبثها به ، وروح الحاسد الباغى متعلقة به يقظةً ومنامًا لا يفتُرُ عنه ، وهو يتمنَّى أن يتماسك الروحان ، ويتَشبَّثا ،

---

(١) الطلاق . ٣

فإذا تعلقتْ كُلُّ روح منهما بالأخرىٰ ، عُدِم القرارُ ، ودَامَ الشَّرُّ حتى يهلك أحدهما ؛ فإذا جبذ روحه عنه ، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به ، وأن لا يخطره بباله ، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر ، والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به . . بقى الحاسد والباغى يأكل بعضه بعضًا ؛ فإن الحسد كالنار فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضًا [1] ، وهذا [*] باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية . . [2] وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه : كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه وتعلّق روحه به ، ولا يرى شيئًا ألم لروحه من ذلك ، ولا يُصدّق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللّيّنة التى رضيت بوكالة الله لها ، وعلمت أن نصره لها خيرٌ من انتصارها هى لنفسها ، فوثقَتْ بالله ، وسكنت إليه ، واطمأنّت به ، وعلمت أن ضمانه حقٌّ ، ووعده صدقٌ ، وأنه لا أوفى بعهده من الله ، ولا أصدق منه قيلاً . فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم ، وأعظم فائدةً من نصرها هى لنفسها ، أو نصر مخلوق مثلها لها ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس .

* *

(السبب السادس) : وهو الإقبال على الله والإخلاص له وجعل محبته وترضيه والإنابة إليه فى محل خواطر نفسه وأمانيها . . تدبٌ فيها دبيب تلك الخواطر شيئًا فشيئًا حتى يقهرها ويغمرها ، ويذهبها بالكلية ؛ فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها فى محاب الرب والتقرب إليه وتملقه وترضيه واستعطافه وذكره .

(*) التغاضى عن الحاسد والشانئ .

(١) كما قال الشاعر :

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله
النار تأكل نفسها إنْ لم تجد ما تأكله

(٢) الظاهر أن هناك سقط . . لعل تقديره : وهذا فرق بين صاحب الهمة النائمة والذكاء المحدود ، وبين . . .

كما يذكر المحب التام المحبة لمحبوبه المحسن إليه الذى قد امتلأت جوانحه من حبه ، فلا يستطيع قلبه انصرافًا عن ذكره ، ولا روحه انصرافًا عن محبته ، فإذا صار كذلك : فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت إنكاره وقلبه معمورًا بالفكر فى حاسده والباغى عليه والطريق إلى الانتقام منه والتدبير عليه ؟ هذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكُن فيه محبة الله وإجلاله ، وطلب مرضاته ، بل إذا مسَّه طيفٌ من ذلك واجتاز ببابه من خارج ناداه حرسُ قلبه : إياك وحمىَ الملك ، إذهب إلى بيوت الخانات التى كل من جاء حلَّ فيها ، ونزل بها ، مالك ولبيت السلطان الذى أقام عليه اليزك ، وأدار عليه الحرس ، وأحاطه بالسور . قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس أنه قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْس لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلا من اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى فى حق الصديق يوسف عليه السلام :

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤) .

فما أعظم سعادةَ من دخل هذا الحصن ، وصار داخل اليزك لقد آوى إلى حصنٍ لا خوفَ على من تحصَّن به ، ولا ضيعة على من آوى إليه ، ولا مطمعَ للعدو فى الذنوب إليه منه :

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٥) .

* *

---

(١) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣ (٢) الحجر : ٤٢ (٣) النحل : ٩٩ ، ١٠٠

(٤) يوسف : ٢٤ (٥) الجمعة : ٤

(السبب السابع) : تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التى سلطت عليه أعداءه ؛ فإن الله تعالى يقول :

﴿ وَما أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (١) .

وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ :

﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هَذا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٢) .

فما سلَّط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه ، وما لا يعلمه العبدُ من ذنوبه أضعافُ ما يعلمه منها ، وما ينساه مما علمه وعمله أضعافُ ما يذكره ، وفى الدعاء المشهور :

« اللَّهُمَّ إنِّى أعوذ بك أن أُشرك بك وأنا أعلَم ، وأستغفرُك مما لا أعلم » (٣) .

فما يحتاج العبدُ إلى الاستغفار منه ، مما لا يعلمه أضعافُ أضعاف ما يعلمه ، فما سُلِّط عليه مؤذٍ إلا بذنب .

* ولقى بعض السَّلَف رجل فأغلظ له ، ونال منه ، فقال له : قف حتى أدخل البيت ، ثم أخرج إليك فدخل ، فسجد لله ، وتضرع إليه ، وتاب وأناب إلى ربه ، ثم خرج إليه فقال له : ما صنعت ؟ فقال : تبت إلى الله من الذنب الذى سلطك به على .

* وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس فى الوجود شر من الذنوب وموجباتها ، فإذا عُوفى من الذنوب عوفى من موجباتها : فليس للعبد إذا بُغى عليه وأوذى وتسلط عليه خصومُه شىءٌ أنفعَ له من التوبة النصوح ، وعلامةُ سعادته أن يعكس فكرَه ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه فيشتغل بها

---

(١) الشورى : ٣٠ (٢) آل عمران : ١٦٥

(٣) رواه أبو يعلى فى « مسنده » (١/ ٦١ - ٦٢ رقم ٥٨ - ٦١) من حديث أبى بكر الصديق ، وإسناده ضعيف ، راجع « مجمع الزوائد » (١٠/ ٢٤٤) .

وبإصلاحها وبالتوبة منها ، فلا يبقى فيه فراغٌ لتدبُّر ما نزل به ، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه ، والله يتولَّى نصرتَه وحفظه والدفع عنه ولا بُدّ . فما أسعده من عبد ! وما أبركها من نازلة نزلت به ! وما أحسن أثرها عليه ! ولكن التوفيق والرشد بيد الله ، لا مانع لما أعطَى ، ولا مُعْطى لما منعَ ، فما كل أحد يوفق لهذا : لا معرفة به ، ولا إرادة له ، ولا قدرة عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

❊ ❊

(السبب الثامن) : الصدقة والإحسان ما أمكنه . فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا فى دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد ، ولو لم يكن فى هذا إلا تجارب الأمم قديمًا وحديثًا لكفى به : فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسنٍ متصدقٍ ، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف ، والمعونة والتأييد وكانت له فيه العاقبة الحميدة ؛ فالمحسن المتصدق فى خفارة إحسانه وصدقته عليه من الله جُنَّةٌ واقيةٌ ، وحصن حصين .

وبالجملة فالشكر حارسُ النعمة من كل ما يكون سببًا لزوالها ، ومن أقوى الأسباب حسد الحاسد والعائن ، فإنه لا يفتر ولا ينى ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود ، فيحنئذ يبرد أنينه وتنطفى ناره - لا أطفأها الله -

فما حرس العبدُ نعمة الله عليه بمثل شكرها ، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها معاصى الله ، وهو كفران النعمة وهو باب إلى كفران المنعم ؛ فالمحسن المتصدق يستخدم جندًا وعسكرًا يقاتلون عنه ، وهو نائم على فراشه ، فمن لم يكن له جند ولا عسكر وله عدو فإنه يُوشك أن يظفر به عدُوُّه وإن تأخَّرَتْ مدة الظفر والله المستعان .

❊ ❊

(السبب التاسع) : وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقّها عليها ، ولا يوفق له إلا من عظُم حظُّه من الله ، وهو طفىُ نار الحاسد والباغى

والمؤذى بالإحسان إليه ، فكلما ازداد أذى وشرًا وبغيًا وحسدًا ازددت إليه إحسانًا وله نصيحةً وعليه شفقةً ، وما أظنك تُصدِّق بأن هذا يكون ، فضلاً عن أن تتعاطاه ، فاسمع الآن قوله عَزَّ وجَلَّ :

﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٢) .

وتأمل حال النبى ﷺ كما جاء فى حديثه أنه ضربه قومه حتى أدموه فجعل يسلت الدم عنه ويقول : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِى فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»(٣) .

كيف جمع فى هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان قابل بها إساءتهم العظيمة إليه :

أحدها : عفوه عنهم .

والثانى : استغفاره لهم .

الثالث : اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون .

الرابع : استعطافه لهم بإضافتهم إليه ، فقال : « اغْفِرْ لِقَوْمِى » ، كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به : هذا ولدى ، هذا غلامى ، هذا صاحبى ، فهبه لى .

واسمع الآن ما الذى يُسَهِّل هذا على النفس ويطيبه إليها وينعمها به :

---

(١) فصلت : ٣٤ - ٣٦ (٢) القصص : ٥٤ (٣) رواه البخارى

اعلم أن لك ذنوبًا بينك وبين الله تخاف عواقبها ، وترجوه أن يعفو عنها ، ويغفرها لك ويهبها لك .

ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى يُنعم عليك ويُكرمك ويَجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله : فإذا كنت ترجُو هذا من ربك أن يُقابل به إساءتَك . . فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه ، وتقابل به إساءتهم ؛ ليعاملك الله هذه المعاملة ؛ فإن الجزاء من جنس العمل : فكما تعمل مع الناس فى إساءتهم فى حقك ، يفعل الله معك فى ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقًا ، فانتقِمْ بعد ذلك أو اعفُ وأحسن أو اترك فكما تَدينُ تُدان ، وكما تفعل مع عباده يفعل معك .

فَمن تصوَّر هذا المعنى وشغل به فكرَه . . هانَ عليه الإحسان إلى مَن أَسَاءَ إليه ، هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة ، كما قال النبى ﷺ للذى شكى إليه قرابته ، وأنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه فقال :

« لا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ ما دُمت على ذلك » (١) .

* هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه ، ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإنه كل من سمع أنه محسنٌ إلى ذلك الغير ، وهو مُسىء إليه وجدَ قلبه ودعاءَه وهمَّتَه مع المحسن على المسىء ، وذلك أمر فطرى فطر الله عليه عباده .

فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرًا لا يعرفهم ولا يعرفونه ، ولا يريدون منه إقطاعًا ولا خبزًا ، هذا مع أنه لا بُدّ له مع عدوه وحاسده من إحدى حالتين :

إما أن يملكه بإحسانه فيستعبده ، وينقاد له ، ويذلُّ له ويبقى من أحب الناس إليه .

---

(١) رواه مسلم وأحمد .

وإما أن يُفَتِّت كبده ، ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه ؛ فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه ، ومَن جَرَّب هذا عَرَفه حق المعرفة ، والله هو المُوفق المُعين ، بيده الخير كُلُّه لا إله غيره ، وهو المسئول أن يستعملنا وإخواننا فى ذلك بمنّه وكرمه .

وفى الجملة : ففى هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد عاجلة وآجلة ، سنذكرها فى موضع آخر إن شاء الله تعالى .

* *

(السبب العاشر) : وهو الجامع لذلك كله ، وعليه مدار هذه الأسباب ، وهو : تجريد التوحيد ، والترحُّل بالكفر فى الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم ، والعلم بأن هذه آلات بمنزلة حركات الرياح ، وهى بيد مُحرّكها وفاطرها ، وبارئها ، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه ، فهو : الذي يحسن عبده بها ، وهو الذى يصرفها عنه وحده ، لا أحد سواه ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ (١) .

وقال النبى ﷺ لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما :

« واعلم أن الأُمَّةَ لو اجتَمَعُوا عَلَى أن يَنْفَعُوكَ ، لَم يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيءٍ كتبهُ اللهُ لك . ولو اجتَمَعُوا عَلَى أن يَضُرُّوكَ لم يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ كَتَبهُ اللهُ عَلَيْكَ » (٢) .

* فإذا جَرَّدَ العبدُ التوحيد فقد خرجَ من قلبه خوفُ ما سواه ، وكان عدُوُّه أهون عليه من أن يخافه مع الله ، بل يفرد الله بالمخافة ، وقد أمنه منه وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه ، وتجرَّدَ لله محبةً وخشيةً وإنَابَةً وتوكلاً واشتغالاً به عن غيره ، فيرى أن إعماله فكره فى أمر عدوه وحوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده ، وإلا فلو جرَّدَ توحيده لكان له فيه شغل شاغلٌ ،

---

(١) يونس : ١٠٧ (٢) الحديث فى « شعب الإيمان » .

والله يتولى حفظه ، والدفع عنه ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، فإن كان مؤمنًا ، فالله يُدافع عنه ولا بُدَّ . وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه ، فإن كَمُل إيمانه كان دفع الله عنه أتمَّ دفع ، وإن مزج . مزج له ، وإن كان مرّةً ومَرّةً . . فالله له مرة مرة :كما قال بعض السلف : مَن أقبلَ على الله بكلّيته أقبل الله عليه جملة ، ومَن أعرضَ عن الله بكليته أعرض اللهُ عنه جملة ، ومن كان مَرّةً وَمَرّةً ، فالله له مرة ومرة .

* فالتوحيد حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الآمنين ، قال بعض السَّلَف : مَنْ خَافَ اللهَ خَافَه كُلُّ شَىْء ، ومن لم يخف الله . . أخافه الله من كل شىء .

* *

* فهذه عشرة أسباب ، يندفع بها شر الحاسد ، والعائن ، ولساحر ، وليس له أنفع من التوجه إلى الله ، وإقباله عليه ، وتوكله عليه ، وثقته به ، وألا يخاف معه غيره ، بل يكون خوفه منه وحده ، ولا يرجو سواه ، بل يرجوه وحده ، فلا يعلق قلبه بغيره ، ولا يستغيث بسواه ، ولا يرجو إلا إيّاه ، ومتى علق قلبه بغيره ، ورجاه وخافه وُكِلَ إليه . وخذل من جهته ؛ فمن خاف شيئًا غير الله سُلِّط عليه ، ومن رجا شيئًا سوى الله خُذِل من جهته وحُرِم خيرَه .

هذه سُنَّة الله فى خلقه ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً .

* * *

المبحث التاسع

● ما يعتصم به الإنسان من شياطين الإنس والجن :

(ما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه) :

وذلك عشرة أسباب :

أحدها : الاستعاذة بالله من الشيطان ، قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَالسَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) .

وفى موضع آخر : ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

وقد تقدم أن « السمع » المراد به ههنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام ، وتأمَّلْ سرَّ القرآن كيف أكَّد الوصف بـ « السميع العليم » بذكر صيغة (هو) الدال على تأكيد النسبة واختصاصها ، وعَرَّف الوصف بالألف واللام فى سورة حم ؛ لاقتضاء المقام لهذا التأكيد ، وتركه فى سورة الأعراف لاستغناء المقام عنه ؛ فإن الأمر بالاستعاذة فى سورة حم (فصلت) (٣) ، وقع بعد الأمر بأشقّ الأشياء على النفس وهو مقابلة إساءة المسىء بالإحسان إليه ، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون ، ولا يُلَقَّاه إلا ذو حظ عظيم كما قال الله تعالى (٤) ، والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا بل يُريه أن هذا ذُلٌّ وعجز ، ويُسلِّط عليه عدوه ، فيدعوه إلى الانتقام ويُزيِّنه له . فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه ، وأن لا يسىء إليه ، ولا يحسن فلا يؤثر الإحسان إلى المسىء إلا من خالفه وآثر الله وما عنده ، على حظه العاجل فكان المقام مقام تأكيد وتحريض فقال تعالى فيه : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٥) .

وأما فى سورة الأعراف فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين ، وليس فيها

---

(١) فصلت : ٣٦ (٢) الأعراف : ٢٠٠ (٣) فصلت : ٣٦

(٤) راجع الآيات ٣٤ - ٣٥ من سورة حم السجدة . (٥) فصلت : ٣٦

الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان بل بالإعراض،وهذا سهل على النفوس غير مستعصى عليها : فليس حرص الشيطان وسعيه فى دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان فقال :

﴿ وَإِمَّا ينزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

وقد تقدم ذكر الفرق بين هذين الموضعين وبين قوله تعالى : فى حَم المؤمن : ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢) .

وفى صحيح البخارى (٣) عن عدى بن ثابت عن سليمان بن صرد قال : كنت جالسًا مع النبى ﷺ ورجلان يَستَبَّان فأحدُهما احمرَّ وجهُه وانتفخَت أوداجُه ، فقال النبى ﷺ : « إنِّى لأعلمُ كلمةً لو قالَها ذهبَ عنه ما يجدُ ، لو قال : أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرَّجِيمِ ذَهَبَ عنهُ ما يَجِدُ » .

❊ ❊

(الحرز الثانى) : قراءة هاتين السورتين (٤) فإن لهما تأثيرًا عجيبًا فى الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه . ولهذا قال النبى ﷺ : « ما تعوَّذَ المتعوِّذُونَ بِمثلهما » (٥) .

وقد تقدم أنه كان يتعوَّذُ بهما كل ليلة عند النوم ، وأمر عُقبةَ أن يقرأ بهما دُبُر كل صلاة ، وتقدم قوله ﷺ :

« إن مَن قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثًا حين يمسى ، وثلاثًا حين يُصبح كَفَتْه من كل شىء » .

❊ ❊

(الحرز الثالث) : قراءة آية الكرسى ففى الصحيح (٦) ، من حديث محمد ابن سيرين عن أبى هريرة قال :

« وَكَّلنى رسولُ اللهِ ﷺ بحفظِ زَكاةِ رمضانَ فأتى آتٍ ، فجعل يحثو من

---

(١) الأعراف : ٢٠٠ (٢) المؤمن : ٥٦ (٣) فى الأدب : ٧/٩٩

(٤) المعوذتين . (٥) مرّ الحديث فى تفسير (الفلق) .

(٦) رواه البخارى .

الطعام ، فأخذتُه فقلتُ : لأرفعنَّكَ إلى رسول الله ﷺ فذكر الحديث . . . فقال : إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى فإنه لن يزالَ عليكَ من الله حافظٌ ، ولا يقربك شيطانٌ حتى تصبح ، فقال النبى ﷺ : « صدقَكَ وهو كذوبٌ ، ذاكَ الشّيطانُ » .

وسنذكر إن شاء الله تعالى السرّ الذى لأجله كان لهذه الآية العظيمة هذا التأثير العظيم فى التحرز من الشيطان؛واعتصام قارئها بها فى كلام مفرد عليها وعلى أسرارها وكنوزها بعون الله وتأييده .

* *

(الحرز الرابع) : قراءة سورة البقرة ، ففى الصحيح من حديث سهل عن عبد الله ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال :

« لا تَجْعَلُوا بُيوتَكم قُبورًا ، وأن البيتَ الَّذى تُقرأ فيه البقرةُ لا يدخله الشيطان » (١) .

* *

(الحرز الخامس) : خاتمة سورة البقرة ، فقد ثبت فى الصحيح (٢) من حديث أبى موسى الأنصارى ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ قَرأ الآيَتَيْنِ من آخرِ سورةِ البقرةِ فى لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ » .

وفى الترمذى (٣) عن النعمان بن بشير ، عن النبى ﷺ قال : « إنَّ اللهَ كَتَبَ كتَابًا قَبلَ أن يخلُقَ الخلقَ بألْفَىْ عام ، أنزل منه آيتين خَتَمَ بهما سورة البقرة فَلا يُقْرآن فى دار ثلاثَ ليالٍ فيقربها شيطانٌ » .

* *

(الحرز السادس) : أول سورة حَم المؤمن إلى قوله : ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ ، مع آية الكرسى ، ففى الترمذى (٤) من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر عن

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه البخارى ، ومسلم .
(٣) أخرجه فى فضائل القرآن ، والنسائى .
(٤) رواه الترمذى .

ابن أبى مليكة ، عن زرارة بن مصعب ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن قَرأ حَم المؤمن إلى : ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ وآيةَ الكرسى حين يُصبح حُفِظ بهما حتي يُمسى ، ومَن قَرأهما حين يُمسى حُفِظَ بهما حتى يصبح » .

وعبد الرحمن المليكى وإن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه ، فالحديث له شواهد فى قراءة آية الكرسى ، وهو محتمل على غرابته .

* *

(الحرز السابع) : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير ، مائةَ مرة ، ففى الصحيحين [1] من حديث سُمَىّ مولى أبى بكر عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قال لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وهُوَ على كُلِّ شَىءٍ قديرٌ ، فى يوم مئة مرة كانت له عَدْلَ عشر رقاب ، وكُتبت له مائةُ حسنةٍ ، ومُحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزًا من الشيطان يومَه ذلك حتى يُمسى ، ولم يأتِ أحدُ بأفضلَ مما جاءَ به إلا رجلٌ عمل أكثر من ذلك » .

فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير سهل على من يسره الله عليه .

* *

(الحرز الثامن) : وهو من أنفع الحروز من الشيطان كثرة ذكر الله عَزَّ وجَلَّ ففى الترمذى [2] من حديث الحارث الأشعرى أن النبى ﷺ قال : « إنَّ اللهَ أمرَ يحيى بن زكريا بخمس كلمات أنْ يعمل بها ويأمُر بنى إسرائيلَ أن يعملوا بها ، وأنهُ كاد أن يُبطىءَ بها ، فقال عيسى : إنّ الله أمرك بخمس كلمات لتعملَ بها وتأمرَ بنى إسرائيلَ أن يعملوا بها ، فإمَّا أن تأمرهم ، وإما أن آمُرَهُمْ . فقال يحيى : أخشى إنْ سبقتَنى بها أن يُخْسَفَ بِى ، أو أُعذَّب ، فجمعَ

---

(١) رواه البخارى .

(٢) أخرجه الترمذى .

النّاسَ فى بيتِ المقدسِ فامتلأ وقعدوا على الشرفِ ، فقال : إن اللهَ أمَرنى بخمس كلماتَ أن أعملَ بهن وآمُركم أن تعملوا بهنَ .

أوَّلُهُنَّ أن تعبدوا اللهَ ولا تُشْرِكوا به شيئًا . وإن مثلَ من أشركَ باللهِ كمثل رجلٍ اشترى عبدًا من خالصِ ماله بذهب أو وَرِق فقال : هذه دارى ، وهذا عملى ، فاعمل وأدِّ إلىَّ ، فكان يعملُ ، ويُؤدّى إلى غير سيد، فأيُّكم يرضى أن يكون عبده كذلك .

* وأن الله أمَركم بالصلاة فإذا صَلَّيْتم فَلا تَلْتَفِتُوا ، فإنّ اللهَ ينصبُ وجهه لوجه عبدِهِ فى صلاتِهِ ما لم يَلْتَفِتْ .

* وأمركم بالصِّيَامِ : فإن مثلَ ذلك كمثل رجلٍ فى عصابة معه صُرَّةٌ فيها مِسْكٌ فكلّهم يُعجب أو يعجبه ريحها ، وإن ريح الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك .

* وأمركم بالصدقة : فإن مثل ذلك كمثل رجلٍ أسره العدُوُّ فأوثقُوا يده إلى عنقه ، وقدّموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم .

* وأمركم أن تذكروا الله : فإن مثل ذلك كمثل رجلٍ خرجَ العدُو فى أثره سراعًا حتى أتى على حصن حصين فأحرزَ نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرزُ نفسه من الشيطان إلا بذكر الله .

قال النبى ﷺ : « وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن . السمع ، والطاعة ، والجهاد ، والهجرة ، والجماعة . فإن من فارق الجماعة قيدَ شبر فقد خلع ربقةَ الإسلام من عنقه إلا أن يراجع .

ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه مِن جُثَاء جهنم » فقال رجل : يا رسول الله ! وإن صلى وصام قال :

« وإن صلى وصام ؛ فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله » .

قال الترمذى هذا حديث حسن غريب صحيح .

وقال البخارى [1] الحارث الأشعرى له صحبة وله غير هذا الحديث فقد أخبر النبى ﷺ فى هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله وهذا بعينه هو الذى دلّت عليه سورة قل أعوذ برب الناس فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس ، والخناس الذى إذا ذكر العبدُ اللهَ انخنس وتجمَّع وانقبض وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلبَ ، وألقى إليه الوساوس التى هى مبادىء الشر كله ، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عَزَّ وجَلَّ .

❊ ❊

(الحرز التاسع) : الوضوء والصلاة ، وهذا من أعظم ما يتحرّز به منه ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة : فإنها نارٌ تغلى فى قلب ابن آدم كما فى الترمذى [2] من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال :

« ألا وإنَّ الغضبَ جمرةٌ فِى قلبِ ابنِ آدمَ ، أمَا رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحسَّ بشىء من ذلك فليلصق بالأرض » .

وفى أثر آخر [3] . « إن الشيطان خُلِق من نارٍ وإنما تطفأ النار بالماء » .

فما أطفأ العبدُ جمرةَ الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة ، فإنها نار ، والوضوء يطفئها والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله ، وهذا أمر تجربته تغنى عن إقامة الدليل عليه .

❊ ❊

(الحرز العاشر) : إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس ؛ فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة :

---

(١) راجع التاريخ الكبير .

(٢) أخرجه فى « الفتن » ، وأخرجه أحمد .

(٣) أخرجه أبو داود .

فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ووقوع صورة المنظور إليه فى القلب والاشتغال به ، والفكرة فى الظفر به ، فمبدأ الفتنة من فضول لنظر كما فى المسند عن النبى ﷺ أنه قال : « النظرةُ سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس ، فمن غضَّ بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها فى قلبه إلى يوم يلقاه » أو كما قال صلى الله عليه وسلم (١) .

فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة ، كما قال الشاعر :

كُلُّ الحوادث مبدأها من النظـــرِ ومُعظمُ النار من مستصغر الشرر

كم نظرةٌ فتكتْ فى قلب صاحبها فتكَ السهام بلا قوس ولا وتـر

والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء .

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابًا من الشر كلها مداخل للشيطان ؛ فإمساك فضول الكلام يسدُّ عنه تلك الأبواب كلها ، وكم من حرب جرَّتها كلمةٌ واحدة ، وقد قال النبى ﷺ لمعاذ : « وهل يكُبُّ النَّاسَ على مناخرهم فى النار إلا حصائدُ ألسنتهم » (٢) .

وفى الترمذى أن رجلاً من الأنصار توفى فقال بعض الصحابة طوبى له فقال النبى ﷺ : « فما يدريك فلعله تكلَّم بما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه » .

وأكثر المعاصى إنما تولدها من فضول الكلام والنظر وهما أوسع مداخل الشيطان فإن جارحتيهما لا يملأن ولا يسئمان . . بخلاف شهوة لبطن ، فإنه إذا امتلىء لم يبق فيه إرادة للطعام ، وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام ، فجنايتهما متسعة الأطراف ، كثيرة الشُّعب ، عظيمة الآفات . وكان السَّلَف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام ، وكانوا يقولون : ما شىء أحوج إلى طول السجن من اللسان .

* وأما فضول الطعام فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر فإنه يحرّك الجوارح

---

(١) رواه الحاكم فى « المستدرك » . (٢) رواه الترمذى وأحمد .

إلى المعاصى ، ويثقلها عن الطاعات ، وحسبك بهذين شرا . فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام ، وكم من طاعة حال دونها ، فمن وُقِى شر بطنه فقد وُقِى شرًا عظيمًا ، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إدا ملأ بطنه من الطعام ولهذا جاء فى بعض الآثار : ضيِّقوا مجارى الشيطان بالصوم ، وقال النبى ﷺ :

« مَا مَلأَ آدميٌّ وعاءً شرا من بطن » (١) .

ولو لم يكن فى الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله عَزَّ وجَلَّ . وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ، ووعده ومنَّاه وشهّاه ، وهام به فى كل واد ، فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات ، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت .

* وأما فضول المخالطة فهى الداء العضال الجالب لكل شر . وكم سلبت المخالطةُ والمعاشرةُ من نعمة ! وكم زرعت من عداوة ! وكم غرست فى القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات ، وهى فى القلوب لا تزول ! ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة ، وإنما ينبغى للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة ، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر :

أحدها : مَن مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه فى اليوم والليلة ، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ، ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام وهذا الضرب أعزُّ من الكبريت الأحمر ، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها ، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه فهذا الضرب فى مخالطتهم الربح كله .

(القسم الثانى) : من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك فى خلطته ، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم فى مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات

---

(١) رواه الترمذى وأحمد .

والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من .

(القسم الثالث) : وهم مَن مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه : فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن ، وهو من لا تربح عليه فى دين ولا دنيا ، ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما ، فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت فهى مرض الموت المخوف .

ومنهم من مخالطته كوجع الضرّس يشتد ضربًا عليك فإذا فارقك سكن الألم .

ومنهم من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل الذى لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها فى منزلتها ، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه وفرحه به : فهو يحدث من فيه كلّما تحدث ، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس ، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التى لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض .

ويذكر عن الشافعى رحمه الله أنه قال : ما جلس إلى جانبى ثقيل إلا وجدت الجانب الذى هو فيه أنزل من الجانب الآخر .

ورأيت يومًا عند شيخنا قدس الله روحه رجلاً من هذا الضرب والشيخ يحمله وقد ضعفت القوى عن حمله ، فالتفت إلىّ وقال : مجالسة الثقيل حمى الربع ، ثم قال : لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى فصارت لها عادة أو كما قال .

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة . ومن نكد الدنيا على العبد ، أن يبتلى بواحد من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجًا ومخرجًا .

(القسم الرابع) : من مخالطته الهلك كله ، ومخالطته بمنزلة أكل السم فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء . . وما أكثر هذا الضرب فى الناس - لاكثرهم الله - وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سُنَّة رسول الله ﷺ الداعون إلى خلافها الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا ،

فيجعلون البدعة سُنَّة ، والسُّنَّة بدعة . والمعروف منكرًا ، والمنكر معروفًا ، إن جرّدت التوحيد بينهم قالوا : تنقّصت جناب الأولياء والصالحين ، وإن جرّدت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا : أهدرت الأئمة المتبوعين ، وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلوّ ولا تقصير ، قالوا : أنت من المشبِّهين . وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ، ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر ، قالوا : أنت من المُفتنين ، وإن اتبعت السُّنَّة وتركتَ ما خالفها قالوا : أنت من أهل البدع المضلين ، وإن انقطعت إلى الله تعالى وخلّيتَ بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا : أنت من المُلَبِّسين . وإن تركتَ ما أنت عليه واتبعتَ أهواءهم فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين .

فالحزمُ كل الحزم التماس مرضات الله تعالى ورسوله بإغضابهم وألا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم ، ولا تبالى بذمهم ولا بغضهم ، فإنه عين كمالك كما قال القائل :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنّى فاضل

وقال آخر :

وقد زادنى حبًّا لنفسى أننى بغيض إلى كل امرىء غير طائل

فمن كان بوّابَ قلبه وحارسه من هذا المداخل الأربعة التى هى أصل بلاء العالم وهى فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التى تحرزه من الشيطان فقد أخذ بنصيبه من التوفيق ، وسد على نفسه أبوابَ جهنم ، وفتح عليها أبواب الرحمة ، وانغمر ظاهره وباطنه ، ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء ، فعند الممات يَحمد القومُ التُّقَى ، وفى الصباح يَحمد القومُ السُّرى والله الموفق لا رب غيره ولا إله سواه .

* *

وآخر دعوانا : الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *